قضية قراءة النص القرآني

- بيان طرق تعامل المسلمين مع النص القرآني
- دراسة مشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني
- اقتراح ضوابط القراءة العلمية للنص القرآني

تأليف الباحث المغربي

امحمد رحماني

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله ،

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ومصطفاه وحبيبه ، بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وكشف الله به الغمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فجزاه الله عنا خير الجزاء .

﴿ يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءاً وَاتَّقُواْ اللّهَ الذِي تَسَّاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[2] .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[3] .

---

1 – سورة آل عمران الآية : 102 .

2 – سورة النساء الآية : 01 .

3 – سورة الأحزاب الآيات : 70 – 71 .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتها وكلَّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

فالقرآن الكريم هو كلام الله المترل من لدنه تعالى على قلب محمد ﷺ بلسان عربي مبين المنقول عنه إلينا بالتواتر والمكتوب في المصاحف والمتعبد بتلاوته والمبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس .

والقرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ الباقية على مر العصور والخالدة على دوام الأزمان والدهور وهو لب الإسلام وقاعدته ومصدر تشريعه ، وهو الأصل الذي ترجع إليه الأفهام وتقاس عليه جميع المعاملات والأحكام ، وهو أساس الحضارة وأصل العلوم والمعارف وهو الكتاب الشامل الجامع لكل ما ينفع الناس في الأرض والسماء ويضمن لهم السعادة والهناء في الدنيا والآخرة ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾[1] .

والقرآن هو الدستور الإلهي فلا كتاب بعده ختم الله به الكتب وأكمل به الدين وأتم به النعمة على المسلمين ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾[2] وهو قاعدة اللغة العربية وسنام ذروتها وجوهر تاجها ﴿ نَزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[3] وهو خير داع إليها ودال عليها ، وهو كامل في لغته وعلومه ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾[4] .

---

1 – سورة الأنعام الآية : 38 .

2 – سورة المائدة الآية : 03 .

3 – سورة الشعراء الآية : 195 .

4 – سورة النساء الآية 82 .

لم يتزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ جملة واحدة في لحظة واحدة في بقعة واحدة ، وإنما نزل مفرقا زمانا ومكانا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾[1]

وقد استقر العلماء والمفسرون على أن للقرآن الكريم ثلاث تنزلات :

الأولى : صدوره عن الله في اللوح المحفوظ .

الثانية : نزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا .

وقد نزل القرآن في كلا التنزلين جملة واحدة .

الثالثة : نزول جبريل به منجما آيات تلو آيات على الرسول ﷺ بحسب المناسبات والأحوال ومراعاة لتثبيت فؤاد النبي ﷺ بالقرآن وتثبيت القرآن أيضا في فؤاده ﷺ حفظا وتمكينا .

وقد استغرق نزول القرآن على النبي ﷺ ثلاثا وعشرين سنة ، وقد جنح إلى هذا الرأي كثير من العلماء كما ذكر الزركشي في البرهان من أنه الأشهر والأصح وإليه ذهب آخرون .[2]

وأول آيات نزلت من القرآن الكريم ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾[3] .

---

1 – سورة الفرقان الآية : 32 .

2 – انظر كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي : 229/1 .

3 – سورة العلق الآية : 1 – 5 .

وقد اتفقت كلمة العلماء على أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن الكريم كما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت :« أول **ما** بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد ، الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها ، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال : اقرأ ، فقال النبي ﷺ : (فقلت :**ما أنا بقارئ** ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : **ما أنا بقارئ** ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : **ما أنا بقارئ** ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)** ﴾[1]. فرجع بها ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة ، فقال : (زملوني زملوني) . فزملوه حتى ذهب عنه الروع » .[2]

وآخر ما نزل من القرآن الكريم على أرجح الأقوال وأقوى الآراء على الإطلاق قوله تعالى ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾[3].

---

1 – سورة العلق الآيات : 1-5 .

2 – **متفق عليه** : أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي حديث رقم (03) وفي مواضع أخرى (3392 – 4953 – 4955 – 4957 – 6982) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

3 – سورة البقرة الآية : 281 .

وإضافة إلى طرق إثباتها فإن ما تحمله في طياتها من الدلالة على ختام الوحي والدين والإشارة إلى الاستعداد ليوم المعاد واستيفاء الجزاء العادل في يوم لا ظلم فيه ، ثم إن النبي ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال ثم التحق بجوار ربه.[1]

وهناك أقوال أخرى في آخر ما نزل أوصلها بعض العلماء إلى أحد عشر قولا ، والحسم في تلك الأقوال بما سبق إضافة إلى أن [**هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو ويحتمل أيضا أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب**][2] .

والقرآن منه ما هو مكي ومنه ما هو مدني ومنه ما نزل بليل وما نزل بنهار وما نزل بالبيت وما نزل بالغار ومنه ما نزل بالجبل وما نزل بالمسجد ، ومنه ما نزل في الحل ومنه ما نزل في الترحال ومنه ما نزل بحضرة بعض الصحابة ومنه غير ذلك .

---

1 – انظر مناهل العرفان للزرقاني 90/1 .

2 – انظر الإتقان في علوم القرآن للزركشي 80/1 والبرهان 210/1 .

وعدد سوره 114 سورة ، ما يعادل ستين حزبا ، أي أربعمائة وثمانون (480) ثمن ، أي مائتان وأربعون (240) ربعا ، أي مائة وعشرون (120) نصفا ، وعدد آياته على الأرجح ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية (6236) بحسب العد الكوفي ، وعدد كلماته (77473) كلمة وعدد حروفه (323071) حرفا .

والقرآن هو الاسم الغالب والذائع والأشهر بين أسماء الكتاب الكريم والأكثر استعمالا ويليه أربعة أسماء وهي :

الكتاب : بمعنى المكتوب ، ومنه قوله تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا** ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ**﴾[3] وإذا أَطلق الأصوليون الكتاب في بحوثهم انصرف إلى القرآن باعتباره المصدر الأول للشريعة ، فهو علم بالغلبة عندهم ، كما أن الكتاب إذا أطلق لدى النحويين انصرف في عرفهم إلى كتاب سيبويه .

وفي تسمية كلام الله الكريم بهذين الاسمين (القرآن والكتاب) دلالة بالغة وإشارة واضحة إلى كونه محفوظا في الصدور ومكتوبا في السطور .

---

1 – سورة آل عمران الآية : 07 .

2 – سورة الكهف الآية : 01 .

3 – سورة آل عمران الآية : 03 .

وهي عناية شديدة عديمة النظير أحيط بها القرآن ، حيث تضافرت وسيلتان عظيمتان من وسائل الحفظ على نقله فلم يعتمد على الكتابة وحدها أو على السماع وحده ، وذلك من صور إعجازه ودلالة ختمه للرسالات وهيمنته عليها وأمنه من التحريف وسلامته من أفن العبث والضياع والاندثار ، قال الدكتور محمد عبد الله دراز :[**روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه ، وفي تسميته بهذه الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يتوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر**][1].

الذكر : قال تعالى ﴿ **وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾[2] فسمى الله ﷻ كتابه ذكرا لأنه يذكر الناس قاطبة بالله ﷻ وبدينه الحق ولأنه مذكور بالشرف والرفعة .

---

1 – انظر كتاب النبأ العظيم الصفحات : 41 -42 .

2 – سورة المائدة الآية : 50 .

والذكر في الأصل مصدر سماعي الفعل : ذكر الشيء يذكره ذكرا وتذكارا ، حفظه في ذهنه ، وذكر الله تعالى : مجده وسبحه ، والذكر : الحفظ للشيء وجريه على اللسان والثناء والشرف والدعاء ونحو ذلك .

فالقرآن الكريم ذكر لأنه مُذَكِّرٌ بالحق هادٍ إليه ومحفوظ غير منسي جار على كل لسان ، حاضر في كل وجدان ، مذكور باستمرار .

الفرقان : قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[1] والفرقان : كل ما فرق به بين الحق والباطل وسمي به القرآن لفصله بين الهدى والضلال فلا يلتبس أحدهما بالآخر ، وقيل سمي به لأنه نزل منجوما مفرقا مفصولا بعضه عن بعض إذ لم يتزل جملة واحدة ، وهو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾[2] .

التتريل : قال تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[3] أي كونه مترلا من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾[4] إلى محمد ﷺ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾[5] .

---

1 – سورة الفرقان الآية : 01 .

2 – سورة الإسراء الآية : 106 .

3 – سورة الشعراء الآية : 192 .

4 – سورة الشعراء الآية : 193 .

5 – سورة الشعراء الآية : 194 .

هذه هي أسماء القرآن الكريم التي أطلقت عليه وصارت الشائعة والأكثر تناقلا والأشهر استعمالا **غير أن بعضهم بالغ في تعداد ألقاب القرآن حتى ذكر منها الزركشي خمسة وخمسين لقبا**[1] ، **وأسرف بعضهم فأوصلها نيفا وتسعين اسما**[2]. وكل لقب من تلك الألقاب إنما هي تشير إلى صفة قرآنية خاصة تعبر عن جانب من جوانب القرآن الكثيرة والمتنوعة .

وللقرآن علوم كثيرة وعديدة وهي في حد ذاتها تعتبر القواعد والأصول فكل ما يخدم القرآن ويتصل به من قريب أو بعيد أو يستنبط ويفهم منه فهو من علوم القرآن .

وهو كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل العزيز الحميد ، **فهو الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغير يذكر** كما قال لوبلوا[3].

ولما كان القرآن الكريم هو كتاب الإسلام الأول الذي تقوم على أساسه عقائد الدين الإسلامي وتشريعاته وتنبثق منه أخلاق الإسلام وآدابه ، فقد اعتمد القرآن منهجا واقعيا متكاملا في تشريعه للأحكام .

---

1 – انظر مباحث علوم القرآن لصبحي الصالح الصفحة :21 .

2 – انظر البرهان 273/1 والإتقان 143/1 .

3 – مقال لميرزا اسكندر كاظم بجريدة journal asiatique عدد ديسمبر 1843.

هذا المنهج القائم على أساس الترابط بين النص القرآني المُشَرِّعِ والواقع الاجتماعي المُشَرَّعِ فيه بحيث لا يكون هناك حرج أو مشقة على الناس ، من ذلك فقد كان المنهج القرآني يحرص على الأخذ بعين الاعتبار حدود القدرة البشرية قال تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1] ويقول ﷻ ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2] من أجل ذلك فقد وجد المناهضون للإسلام قديما وحديثا مشقة كبيرة في محاولة زعزعة مكانة القرآن الكريم وحذف قداسته ، فزعموا بأن القرآن من تأليف محمد ﷺ بمعاونة ناس آخرين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾[3] وأنه ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[4] وأن محمدا ﷺ يعلمه بشر ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾[5] .

وقد حذا المستشرقون المتحاملون على الإسلام في موقفهم من القرآن حذو مشركي مكة وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس وحيا من عند الله ﷻ وإنما هو من تأليف محمد ﷺ ورددوا أحيانا الاعتراضات التي قال بها الوثنيون قديما رغم دحض القرآن لها .

---

1 – سورة البقرة الآية : 286 .

2 – سورة الحج الآية : 78 .

3 – سورة الفرقان الآية : 04 .

4 – سورة الفرقان الآية : 05 .

5 – سورة النحل الآية : 103 .

حتى أصبحت دعوى تأليف محمد ﷺ للقرآن عند المستشرقين أمرا لا يقبل الجدل وقد تناول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في دراسته القيمة "مدخل إلى القرآن" جميع الافتراضات المتعلقة باحتمال وجود مصدر بشري للقرآن وناقشها مناقشة علمية وأظهر زيفها وبطلانها .

ثم بعد ذلك روج المستشرقون لفكرة "القراءة بالمعنى" بمعنى أن نص القرآن بحروفه لم يكن هو المهم وإنما المهم هو روح النص ، وهذا أمر ظاهر في ضرب هذه الفكرة في مصدرية القرآن الكريم وإلهيته لفظا ومعنى ، وهذه فكرة زائلة من الأساس وذلك لما كان معروفا على رسول الله ﷺ من حرصه الشديد على تسجيل الوحي فور نزوله والعناية بحفظه من بداية نزوله إلى نهايته ، والواقع الذي عليه المسلمون منذ أربعة عشر قرنا هو تمسكهم الشديد بالمحافظة على الوحي القرآني لفظا ومعنى ، ولا يوجد مسلم سيبيح لنفسه أن يقرأ القرآن بأي لفظ شاء ما دام يحافظ على المعنى ، ومما هو عند المسلم من المسلمات أن قراءة حرف من القرآن يساوي حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، والحديث واضح وصحيح في المسألة ، وهذا في الحقيقة هو الذي دفع ب"بارت" إلى القول " **ليس لدينا أي سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هناك أية آية في القرآن كله لم ترد عن محمد** "[1].

---

1 - rudl paret :derkoran uebersetzuag sstuttgart 1980 p5

لهذا الأمر كان القرآن الكريم هو الكتاب المقلق للغربيين ومحيرا لهم ومبلبلا لأفكارهم ، يقول بلاشير " **قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتابا بلبل بقراءته أدبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن** "[1] .

والواقع أن القرآن ليس محيرا لهم فقط وإنما هو كتاب خطير عليهم خصوصا فئة المستشرقين **وعندما تدرس هذه الفئة القرآن الكريم دراسة عميقة وتتأمل مبادئه الأساسية وتتبين مزاياه الفريدة وما فيه من دعوة إلى الترابط والاعتصام بحبل الله المتين والتعاون على البر والتقوى والتحذير من الشر أو الظلم والنهي عن السخرية بغيرنا أو التجسس عليه والتحذير من الغيبة والنميمة والحض على الصدق والأمانة والعدل والوفاء بالعهد والحث على طلب العلم والتخلص من الجهل ، عندما يتبينون ذلك كله يحاولون طمس هذه الحقائق وإبعاد المسلمين عنها ويسارعون إلى أولى الأمر في بلادهم من المستعمرين القدامى أو الجدد ويوحون إليهم بأن هذا القرآن كتاب خطير لأنه اشتمل على مبادئ تقيم الدنيا وتقعدها ، وإذا تحقق فهمها وتطبيقها ساد أهله العالم كله وتحكموا في مصيره وهذا يعني أن المسلمين إذا عرفوا كتابهم حق المعرفة وطبقوه تطبيقا تاما فلن تقوم للاستعمار القديم والجديد قائمة في بلاد المسلمين**[2] .

---

1 – بلاشير : القرآن الصفحة : 41 .

2 – انظر كتاب نظرات استشراقية في الإسلام لمحمد غلاب ، الصفحات : 32-33 .

وهكذا تكاثفت الجهود على تحويل المسلمين عن كتاب ربهم ﷻ وتفهيمهم أن القرآن الكريم كتاب جامد لم يعد مسايرا لروح العصر ، وهو مثله مثل أي نص أدبي كتب في سالف الأزمان ويجب أن يتوجه إليه بالنقد والتشكيك كما تعامل النصوص التاريخية والشعرية والنثرية . وقد تورط في هذا العديد من أبناء جلدتنا وممن يتكلمون بألسنتنا حاملين لواء جعل القرآن مجرد نصوص أخلاقية لا تكاليف إلزامية ، وهكذا وفر أبناء جلدتنا على المستشرقين والمبشرين وأسيادهم بذل الجهد في هذا السبيل ، وحققوا لهم أهدافا عاش الإستشراق قرونا طويلة يعمل من أجل تحقيقها دون جدوى.

لذلك فإن الدعوة إلى إعادة قراءة النص القرآني كما يدندن بها البعض في عصرنا الحديث ليست دعوة جديدة كما يفهم البعض منا بل هي دعوة لها أصولها في كتابات المستشرقين أمثال **ريجبس بلاشير** و**أرنست رنان** و**جاك بيرك** و**سيلفر ساسي** و**دوزي** و**رودي بارت** ، وهي دعوة إلى قراءة القرآن باعتباره نصا أدبيا قابلا للتشريح والدراسة كباقي النصوص الأدبية لا باعتباره وحيا إلهيا معصوما من الخطأ والزلل أو الزيادة والنقصان ، وقد اعتمدت دعوة هؤلاء على دراسات غربية ذات مناهج متنوعة كالمنهج الفيلولوجي والمنهج الذاتي والمنهج التاريخي والمنهج الأنتربولوجي والمنهج البنيوي والمنهج اللساني ، وكل هذه المناهج وإن اختلفت من حيث الطريقة التي تعمل بها إلا أنها تتحد وتتشارك في الهدف الذي ترنوا إليه ألا وهو الدعوة إلى الابتعاد عن المنهج التقليدي في قراءة النص القرآني .

ولذلك فقد جاء هذا البحث كما سطرت له وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مندرجا تحت الاهتمام بكتاب الله تعالى من حيث هو مصدر الأمة الإسلامية للاستقاء المعرفي والاستمداد القيمي والاسترشاد السلوكي وأن الاهتمام به يجب أن يكون في الطليعة من لدن علماء الأمة ومثقفيها الذين يجب أن يولوه ما يستحقه من الرعاية والعناية الفائقة ، ومن ثم أصبحت الحاجة ماسة إلى دراسة موضوعية تشتغل على تقويم القراءات السابقة للقرآن الكريم في ضوء منهجية علمية واضحة المبادئ تحرره من كل المذهبيات والترعات المنحازة ، ناهضة بفضح الأباطيل والشبهات التي ما فتئ أعداء الإسلام ينسجونها حول القرآن لتوهين عقائد الأجيال الصاعدة واجتذابها إلى رفض تاريخيها وعقيدتها ، فكان المطلوب من هذه الدراسة في إطار جائزة محمد السادس للفكر والدراسات الإسلامية أن تتناول الجوانب التالية :

- بيان طرق تعامل علماء المسلمين مع النص القرآني من خلال ما أصلوه من قواعد ضابطة للنظر الصحيح في النص القرآني فهما واستنباطا .
- دراسة مشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني برصد تسلسلها التاريخي وتحليل مضامينها وتقويم قضاياها وتفنيد أباطيلها وعقد مقارنات بينها.
- اقتراح ضوابط القراءة العلمية للنص القرآني بالاستفادة من كل ما سبق من أجل تقديم مدخل موضوعي عن القرآن الكريم باعتباره الخطاب الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد جاءت هذه الدراسة على وفق ما سطرته الوزارة في شخص اللجنة المكلفة بتنظيم المسابقة ، في ثلاثة محاور كبرى قدمت لها بتمهيد عرّفت فيه القرآن الكريم مع تجلية بعض نواحيه ، ثم أردفت التمهيد بكلمة واجبة موجزة حول مفهوم النص القرآني ، ثم تناولت المحور الأول وهو بيان طرق تعامل علماء المسلمين مع النص القرآني واقتصرت فيه على منهجين رئيسيين وهما المنهج الأصولي والمنهج الفقهي ، ثم تناولت في المحور الثاني دراسة مشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني من خلال :

- قراءة نصر حامد أبو زيد .
- قراءة أحمد محمد خلف الله
- قراءة أدونيس
- قراءة محمد أركون .
- قراءة حسن حنفي .

ثم بعد ذلك تناولت المحور الثالث باقتراح قراءة علمية للنص القرآني جمعت فيه العديد من القواعد والضوابط التي تحمي النص القرآني من كل ما يمكن أن يخرجه عن قداسته أو أحكامه أو تشريعاته ، ثم أردفته بخاتمة ، فكانت الدراسة على الشكل التالي :

تمهيد

كلمة واجبة موجزة

المحور الأول : بيان طرق تعامل علماء المسلمين مع النص القرآني :

- المنهج الأصولي
- المنهج الفقهي .

المحور الثاني : دراسة مشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني :

- قراءة نصر حامد أبو زيد .
- قراءة محمد أحمد خلف الله .
- قراءة أدونيس .
- قراءة محمد أركون .
- قراءة حسن حنفي .

المحور الثالث : اقتراح قراءة علمية للنص القرآني .

خاتمة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

وكتبه

امحمد بن عبد الكريم رحماني

يوم 16 أكتوبر 2009 الموافق ل26شوال 1430

عين بني مطهر المحروسة

كلمة واجبة موجزة
مفهوم النص القرآني

لقد راج عند كثير من الأدباء والمفكرين وغيرهم ممن أجازوا لأنفسهم اعتلاء سنام الفكر الإسلامي أن يطلقوا الألفاظ على المسميات كيفما شاءوا وبأي معنى أرادوا ، من ذلك إطلاقهم لفظ النص على القرآن الكريم غير قاصدين ما عند علماء المسلمين من أصوليين ومفسرين وفقهاء من مفهومهم لهذا المصطلح ، ولا شك أن هدفهم من وراء ترداد هذه الكلمة وهذا المصطلح على آيات القرآن الكريم كان بغية الوصول بكل من يقرأ لهم ويتعلم منهم وعلى أيديهم إلى قضية مساواة النصوص القرآنية بالنصوص النثرية والشعرية ، حتى إذا ما وجدت هذه الفكرة استقرارا في نفوسنا وتمكنا من فكرنا وقبولا في مكتباتنا نادوا بضرورة تحكيم القواعد والأسس التي تستخدم في دراسة تلك النصوص النثرية والشعرية وتطبيقها على آيات القرآن الكريم وسوره من أجل تسفيهها وردها وإزالة القداسة عنها ، فيصير النص القرآني نصا أدبيا مات صاحبه يماثل النصوص الشعرية ، ويصير بذلك ديوانا للعرب باعتبار الشعر ديوان العرب وما جاز على النص الشعري جاز على النص القرآني .

وهذا أمر خطير ، وإذا لم يلق له علماؤنا ومثقفونا بالا ستصير الآيات والأحاديث لا تختلف عن أي نص بشري يتأثر بالتاريخ والبيئة ، وستصير كما يقال ثمرة لتفاعل جدلي بين اللغة والواقع وانعكاسا له ، وأنها محض اجتهادات بشرية محكومة بعقول وأفهام بشرية مرتبطة بزمان ومكان خاصين قد لا تتناسب مع زمان ومكان آخرين وبالتالي فهي قابلة للأخذ والرد .

ومن خلال ذلك نجد أنهم حينما يستعملون مصطلحات علماء الأصول كمفهوم النص فإنهم لا يقصدون بذلك ما قصده علماؤنا ، وإنما يقصدون بذلك أن يلبسوا على الناس ويدلسوا عليهم .

امحمد بن عبد الكريم رحماني

المحور الأول

بيان طرق تعامل علماء المسلمين مع النص القرآني

المنهج الأصولي في قراءة النص القرآني

نظرا لأهمية النص القرآني في بنية الثقافة العربية الإسلامية فإن هاجس هذه الثقافة توجه نحو تفسير النص وبيان دلالته اللغوية وحمولته الدلالية ذلك أن القرآن الكريم شكل المحور الذي تلتقي حوله جميع الفعاليات الإنسانية[1].

من ذلك فقد شكلت قضية قراءة النص قطاعا مشتركا بين كثير من النظم والمعارف التي كونت المحاور الكبرى في التراث اعتبارا لذلك فإن ما قدمه المنهج الأصولي فاق ما قدمته النظم المعرفية الأخرى ، فقد تعلق علماء الأصول تعلقا بالغا بالدقة والضبط والصرامة المنهجية في إرسائهم لقواعد القراءة وضوابط الفهم والاستنباط والنظر الصحيح ، ووضعوا في كتبهم عددا من القواعد والضوابط التي تعد أمرا ملزما وضروريا في قراءة النص القرآني وفهم الخطاب الشرعي .

---

1 – انظر كتاب الإشكال الدلالي في قراءة النص القرآني للدكتور محمد بنعمر الصفحة : 04 .

لقد رصد علماء الأصول كثيرا من المشاكل الدلالية التي تعترض النص على مستوى التفسير والتأويل ومن هنا فقد حاول علماء الأصول تشييد نظرية دلالية متماسكة "**تكشف عن نظام الدلالة ومستوياتها وطرق الكشف عنها**"[1] .

ومما يدل على نزوع علم أصول الفقه نحو تفسير النص وفقه الخطاب هو استحضار علماء أصول الفقه لكثير من المباحث التي هي من صميم علم اللغة ، فأغلب المباحث التي دونت في هذا العلم كانت مباحث لغوية (الموافقات 117/4) لأن الحق سبحانه خاطب العرب " **بلسانها على ما تعرف من معانيها** "[2].

لقد اشتغل علماء أصول الفقه في دراستهم للنص القرآني بالمباحث اللغوية الشيء الذي دفع بهم إلى استقراء أساليب وتراكيب اللغة العربية مستخلصين من ذلك مجموعة من القواعد والضوابط واعتبروا التقيد بها شرطا ضروريا في تفسير النص وتحديد دلالته لغاية استنباط الحكم الشرعي منه " **وهكذا وضعت تلك القواعد بعد استقراء الأساليب العربية** "[3].

---

1 – محمد المالكي : دراسة الطبري للمعنى ، الصفحة : 36 .

2 – الإحكام في أصول الأحكام لأبن حزم 47/4 .

3 – تفسير النصوص : أديب صالح 09/1 .

لقد عرف البحث اللغوي تطورا ملحوظا على يد علماء أصول الفقه والناظر في أمهات كتب الأصول مثل **البرهان** لإمام الحرمين و**المستصفى** لأبي حامد الغزالي و**المعتمد** لأبي الحسين البصري المعتزلي و**الإحكام في أصول الأحكام** لابن حزم الظاهري و**أحكام الفصول في أحكام الأصول** لأبي الوليد الباجي و**المحصول في علم الأصول** لفخر الدين الرازي و**البحر المحيط** لبدر الدين الزركشي يلاحظ بشكل واضح مدى اعتماد الأصوليين على اللغة في بناء وتشييد استدلالاتهم وتخريجاتهم الفقهية ، فمراهنة الأصوليين على الجانب اللغوي في الاستدلال أو الاستنباط هو الذي قادهم إلى استحضار كثير من المباحث اللغوية في ثنايا مباحثهم ومصنفاتهم الأصولية .

ولقد كشف الإمام أبو إسحاق الشاطبي عن حجم هذا الحضور فقال " **وغالب ما صنف في أصول الفقه من الفنون إنما هو من المطالب العربية**"[1] أما عن الباعث والداعي لإثارة الأصوليين للمباحث اللغوية في كتبهم فيعود إلى توقف الاستدلال على فهم الخطاب الشرعي ، فالدراية باللغة أمر ملزم لكل من قصد الاستدلال أو الاجتهاد كما أن الضعف في اللغة سيجانب صاحبه الصواب في استنباط الحكم الشرعي ، قال الإمام فخر الدين الرازي " **لما كان المرجع في معرفة شرعنا إلى القرآن الكريم والأخبار وهما واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم كان العلم بشرعنا موقوفا على العلم بهذه الأمور** "[2].

---

1 – انظر الموافقات للشاطبي : 117/4 .

2 – انظر المحصول في علم الأصول 198/1 .

أما الإمام جمال الدين الأسنوي فقد قال " **ولما كان الكتاب العزيز واردا بلغة العرب كان الاستدلال به متوقفا على معرفة اللغة** "[1].

لقد كان المجال اللغوي موضوع عناية الأصوليين لكن الجهة التي لقيت العناية والاهتمام أكثر من غيرها في جهة الدلالات التي حددوها في العلاقة الجامعة بين الألفاظ والمعاني ، قال الإمام الغزالي في شأن مبحث الدلالات " **اعلم أن هذا القطب هو عمدة علم أصول الفقه لأنه ميدان سعي المجتهدين في اقتباس الأحكام** "[2].

وقد رصد علماء أصول الفقه دلالات الألفاظ في مختلف المستويات والزوايا فتتبعوا اللفظ وهو يؤدي المعنى على قانون الوضع و لم تقف عنايتهم عند هذا الحد بل تتبعوا جميع الأحوال التي تعتري اللفظ وانتهى بهم المطاف إلى تقسيم اللفظ على واضح وخفي ومبين ومجمل ونص وظاهر . فأغلب المباحث اللغوية التي أطرت علم أصول الفقه اتجهت نحو البحث الدلالي لأنها أكثر صلة بفهم الخطاب فلقد نظر الأصوليون إلى الألفاظ في علاقتها بالمعاني سواء في حالة الإفراد أو في حالة التركيب كما اتجهت عنايتهم إلى البحث في المقتضيات العامة التي تحيط الخطاب[3].

---

1 – انظر نهاية السول 5/2 .

2 – انظر المستصفى 5/2 .

3 – عبد المجيد العلمي : منهج الدرس الدلالي عند الشاطبي 101 .

من ذلك فقد تأسس المنهج الأصولي في قراءة النص القرآني وفهمه والاستنباط منه على مجموعة من الضوابط والشروط والقواعد ، ويعتبر التقيد بهذه الشروط أمرا ملزما للحصول على قراءة سليمة للنص الشرعي عامة والنص القانوني خاصة وتخطي هذه القواعد والضوابط والشروط وعدم التقيد بها في القراءة والتفسير يؤدي إلى تحريف النص عن دلالته الحقيقية .

ومن أهم تلك القواعد التي وضعها علماء الأصول :

1 – **عربية النص القرآني** : ويقصد بهذا الضابط أن الخطاب الشرعي عربي في أسلوبه ولغته وتراكيبه وألفاظه من هنا وجب على قارئ النص أن يكون حاذقا باللغة العربية عارفا بأسرارها وقوانينها في البيان والإفهام حتى قيل "**لولا النحو لسقط الإسلام** " ولقد كشف الإمام الشاطبي عن حيثيات هذا الضابط فقال " **إن الشريعة عربية وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم لأنهما سيان في النمط .. فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة** "[1] ونبه على أهمية معرفة أساليب العرب في الخطاب حيث قال " **إن القرآن نزل بلسان العرب وإنه عربي وإنه لا عجمة فيه بمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه وبالعام يراد به الخاص والظاهر يراد به غير الظاهر** .

---

1 – انظر الموافقات 117/4 .

وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره أو آخره عن أوله وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة والأشياء الكثيرة باسم واحد وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه هي ولا من تعلق بعلم كلامها "[1] وقال أيضا " **فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة وإن لم يكن ثمة عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه العرب .. ولابد لمن أراد الخوض في علم القرآن والسنة من معرفة عادات العرب في أقوالها ومجاري عاداتها حال التنزيل من عند الله والبيان من رسوله لأن الجهل بها موقع في الإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة "**[2]. فاللغة لها خصائصها وقوانينها التي تميزها عن غيرها من اللغات وهذا يعني أن تفهم النص الشرعي فهما أمينا وسالما في غالب الأحيان أصبح مرهونا بفهم اللغة العربية وقوانينها النحوية والصرفية والبلاغية ، وانطلاقا من هذه الحقيقة لم يكن فهم الوحي مستعصيا على العرب الأوائل لأنه كان على معهودهم في التخاطب ، وعربية الخطاب باعتبارها ضابطا وقاعدة في قراءة النص وتفسيره تحمل خطابا صريحا وواضحا على ضرورة تقيد المفسر بأعراف اللغة العربية ومنطقها في التخاطب

---

1 – انظر الموافقات 50/2 .

2 – انظر الموافقات 391/2 .

فالخطاب في اللغة العربية يجري على مجموعة من الأعراف والعادات وأن التسور على هذه الأعراف وتلك العادات يجر على المفسر تبعات تدفعه إلى إخفاء الدلالة الحقيقة للنص بل تفضي به إلى تحريف النص .

ولقد بين الإمام إبراهيم الشيرازي حقيقة منطق اللغة العربية في الخطاب فقال **" أما عرف اللغة فمنه يؤخذ أكثر الكلام لأن الألفاظ معلومة من جهة عرف اللسان وخطاب الله جل ذكره وخطاب رسوله ورد بلسان العرب"**[1] فالقراءة السليمة للنص القرآني تقتضي الدراية باللغة العربية وبأعرافها في الخطاب وبطرق دلالات ألفاظها على المعاني المرادة من الخطاب ، أما إذا أقدم الإنسان على قراءة النص الشرعي أو تفسيره وهو غير متمكن من اللغة فإنه سينتهي به الأمر إلى الانحراف عن دلالة النص الحقيقية .

لقد عبر علماء الأصول عن أهم المشاغل التشريعية التي واجهت الحضارة الإسلامية في سيرورتها التاريخية وتطورها الحضاري ، ومن أبرز المشاغل التشريعية التي راجت في كتب الأصول بشكل مثير مسألة الاستدلال على الأحكام وتخريجها سواء الأدلة الشرعية الأصيلة كالقرآن والسنة والإجماع أو من الأدلة الشرعية التبعية كالقياس والاستحسان والاستصلاح فقد أراد علماء الإسلام لهذا العلم أن يكون معيارا به تنضبط الأدلة التي تستنبط بها الأحكام **" فلا يقول من شاء ما شاء وإنما ترد الفروع إلى أصولها وترد الأصول إلى مصادرها المعصومة التي لا تضل ولا تنسى وتفهم نصوص هذه المصادر وفق قواعد منطقية "**[2].

---

1 – انظر شرح اللمع 112/1 .

2 – انظر مقدمة القرضاوي لأصول الشاسي .

ولما كان الاستدلال والاستنباط يتوقف على فهم النص الشرعي فإن الأصوليين اعتنوا بالمجال اللغوي اهتماما بالغا لأنهم أدركوا مدى الترابط القائم بين اللغة والخطاب الشرعي ودفعهم هذا الترابط إلى اعتبار اللغة والتمكن من قواعدها والحذق بأعرافها وسننها في التخاطب ضرورة لكل من أراد أن يمارس الاستدلال أو الاستنباط أو الإفتاء ، ولقد كان الإمام الأصولي سراج الدين الأسنوي صريحا عندما قال " **معرفة العربية واجبة لتوقف معرفة شرعنا على معرفة القرآن والأخبار الواردين بها** "[1] وكذلك الشاطبي عند قوله " **إن هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن العجمية وهذا وإن كان مبينا في أصول الفقه وأن القرآن ليس فيه كلمة أعجمية عند جماعة من الأصوليين أو فيه ألفاظ أعجمية تكلمت بها العرب وجاء القرآن على وفق ذلك فوقع فيه المعرب الذي ليس من أصل كلامها فإن هذا البحث على هذا الوجه غير مقصود هنا وإنما البحث المقصود هنا أن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة لأن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾**[2] وقال ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴾[3] وقال ﴿ **لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** ﴾[4] وقال ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**﴾[5] .

---

1 – انظر التحصيل من المحصول 128/1 .

2 – سورة يوسف الآية : 02 .

3 – سورة الشعراء الآية : 195 .

4 – سورة النحل الآية : 103 .

5 – سورة فصلت الآية : 44 .

إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب لا أنه أعجمي ولا بلسان العجم ، فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة .. فلابد لها من أن تردها إلى حروفها ولا تقلبها على مطابق حروف العجم أصلا ومن أوزان الكلم ما تتركه على حاله في كلام العجم ، ومنها ما تتصرف فيه بالتغيير كما تتصرف في كلامها وإذا فعلت ذلك صارت تلك الكلم مضمومة إلى كلامها كالألفاظ المرتجلة والأوزان المبتدأة لها هذا معلوم عند أهل العربية لا نزاع فيه ولا إشكال"[1] واعتناء الأصوليين بالجانب اللغوي في الخطاب الشرعي الذي هو مجال الاستدلال يعني أن هذا العلم اتجه اتجاها تفسيريا رغم أن عملية التفسير عملية واسعة ومركبة تبتدأ بالألفاظ وتتوسط بالتراكيب وتنتهي بالسياق ، والذي أعان الأصوليين على اتخاذ الدلالات طريقا في الاستدلال وسبيلا في الاستنباط هو جريان الدلالة على لغة العرب في الخطاب والإفهام ، من هنا كان من الواجب على المستدل الذي يروم الاستدلال وتخريج الأحكام أن يكون على معرفة ودراية باللغة العربية حاذقا بدلالة ألفاظها ، قال ابن حزم " **لا بد للفقيه أن يكون نحويا لغويا وإلا فهو ناقص ولا يحل له أن يفتي لجهله بمعاني الأسماء وبعده عن فهم الأخبار**"[2].

---

1 – انظر الموافقات 55/2 .

2 – انظر الإحكام في أصول الأحكام 52/1 .

لذلك فحضور المباحث اللغوية والدلالية في كتب الأصول بشكل كبير ومثير هو في حد ذاته دلالة واضحة على نوعية المنهج الذي اتخذوه وعملوا به في قراءة النص القرآني قراءة فهم واستنباط واستدلال ، وقد عبر إمام الحرمين الجويني عن أبعاد هذا الحضور فقال " **اعلم أن معظم الكلام في الأصول يتعلق بالألفاظ والمعاني أما المعاني فستأتي في كتاب القياس أما الألفاظ فلا بد من الاعتناء بها فإن الشريعة عربية ولن يستكمل المرء خلال الاستقلال بالنظر في الشرع ما لم يكن ريانا من النحو واللغة**"[1] ونفس المعنى نجده عن الإمام الشاطبي حينما قال " **وغالب ما صنف في أصول الفقه من الفنون إنما هو من المطالب العربية**"[2] أما عن الأسباب والدواعي التي كانت من وراء هذا الحضور اللغوي عند الأصوليين فيمكن إجمال هذه الأسباب في توقف الاستدلال والاستنباط على الدراية باللغة العربية فالقرآن الكريم كما قال الشاطبي " **نزل على لغة العرب على الجملة فطلب فهمه إنما يكون من هذه الطريق خاصة** "[3] فبحكم عربية هذه الشريعة " **وبحكم نزولها وفق مقاصد العرب في مجاري خطابها وعاداتها في تصريف أساليبها فإنه وجب على من رام الانتساب إلى هذا العلم والانخراط في سلك أهله أن يكون ريانا من علوم العربية عارفا بأسرارها ضابطا لقواعدها**"[4] .

---

1 – انظر البرهان .

2 – انظر الموافقات 117/4 .

3 – انظر الموافقات 64/2 .

4 – عبد الحميد العلمي : منهج الدرس الدلالي عند أبي إسحاق الشاطبي ص 46 .

ثم إن معظم الأصوليين كانوا يناقشون القضايا اللغوية وذلك من أجل فهم النص واستخراج فوائده وتأويله ولا يتسنى ذلك في نظرهم إلا بمعرفة دلالات الألفاظ ولهذا أوردوا مسائل تتعلق بالأسماء والأفعال والحروف وهذا مجال العربية القح وقد قال الأمدي " **إن غاية علم الأصول الوصول إلى معرفة الأحكام الشرعية التي هي مناط السعادة الدنيوية والأخروية وأما ما منه استمداد فعلم الكلام والعربية والأحكام الشرعية ، وأما علم العربية ولتوقف معرفة دلالات الأدلة اللفظية من الكتاب والسنة وأقوال أهل الحل والعقد من الأمة على معرفة موضوعاتها لغة من جهة الحقيقة والمجاز والعموم والخصوص والإشارة والإيماء** " وبهذا نجد أن أكثر الأصوليين يعتبرون اللغة أساسا في الدراسات الأصولية ومن هؤلاء الإمام محمد بن الحسن البذخشي في شرحه على مناهج العقول وذلك في الاستدلال على معرفة اللغة ومعرفة أقسامها من الأمر والنهي والعام والخاص والمجمل والمبين ، وكذلك جمال الدين الأسنوي في شرحه على نهاية السول .

ونظرا لتعلق الأصوليين بالمباحث اللغوية فإنهم قاموا باستقراء واسع لتراكيب وأساليب اللغة العربية تحدوهم رغبة الضبط والدقة في إرساء قواعد صارمة تخص تفسير النص الشرعي وعلى ضوء قواعد اللغة العربية شيد الأصوليون عددا كبيرا من الضوابط وعدوا التقيد بها شرطا ضروريا لمن قصد التأويل وابتغى التفسير .

2 – **وحدة القضية في الاستدلال** : يعد ضابط وحدة القضية في الاستدلال من أهم الضوابط التي يتوقف عليها تفسير الخطاب، والمضمون العام لهذا الضابط أن الخطاب الشرعي وحدة دلالية متماسكة في معانيها اللغوية والشرعية وعلى هذا الاعتبار وجب الجمع بين جميع النصوص والنقول التي تشترك في وحدة القضية الموضوعة للاستدلال أو للتفسير ، ذلك أن الجمع والتأليف بين جميع النصوص التي تشترك في وحدة الموضوع هو الكفيل بتحقيق الاجتهاد الصحيح والتفسير السليم ، وقد تفطن علماء الأصول لهذا الأمر وقالوا بأن الاقتصار على نص واحد سواء في الاستدلال أو في التفسير سيؤدي لا محالة إلى كثير من المشاكل ويقود المفسر والمستدل إلى عدد كبير من المتاهات والمزالق والمغالطات ، وقد صرح ابن حزم بهذا عندما قال " **فمن أراد أن يجد جميع الأحكام كلها في آية واحدة فهو عديم العقل معلل بإفساد الشريعة** "[1] وبموازاة مع هذا الإلحاح على ضرورة الجمع بين جميع النصوص التي تشترك في هذه الوحدة فإن علماء الأصول حذروا من عواقب التمسك بنص واحد في التفسير والاستدلال والاستنباط جاء في كتاب التقريب لحد المنطق لابن حزم الأندلسي " **فلا تأخذ بعض الكلام دون بعض فتفسد المعاني ، وأحذرك من شغب قوم في هذا المكان إن ناظروا ضبطوا على آية واحدة أو حديث واحد وهذا سقوط جديد وجعل مفرط** "[2].

---

1 – انظر الإحكام في أصول الأحكام 07/5 .

2 – انظر التقريب لحد المنطق لابن حزم ، الصفحة : 281 .

ثم إن جمع الأدلة يرد ما غمض منها واشتبه إلى ما ظهر منها واتضح ، وأخذ النص الواحد في الباب وطرح نظيره أو العمل بنص وإهمال نصوص أخرى مظنة الضلال في الفهم والغلط في التأويل قال الشاطبي " **ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد وهو الجهل بمقاصد الشرع وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها وعامها المرتب على خاصها ومطلقها المحمول على مقيدها ومجملها المفسر بمبينها إلى ما سوى ذلك من مناحيها ..وشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخذم بعضها بعضا كأعضاء الإنسان وشأن مبتغي المتشابهات أخد دليل ما أي دليل كان عفوا وأخذا أو ليا وإن كان ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي**"[1].

وتظهر أهمية هذا الضابط في التفسير والاستدلال عند ضرورة الجمع والتنسيق بين جميع النصوص التي تشترك في الموضوع الواحد مثل الآيات والنصوص التي تتحدث في موضوع الطلاق وأحكامه وأنواعه وأقسامه ، والجدير بالذكر أن معرفة أي نوع من هذه الأنواع يقتضي معرفة الأنواع الأخرى رغم أن بعضها يتصف بالتقابل في بعض الأحيان وجمع النصوص يقتضي وضع الجزئيات في إطار الكليات وإرداف الفروع بالأصول وإتباع التابع بالمتبوع .

---

1 – انظر الاعتصام 2/50-51 .

ومن العناصر المؤسسة لضابط وحدة القضية في الخطاب أن المفسر يجب أن يلتفت إلى أول الكلام وآخره " **بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض فلا محيص للمتفهم من رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره** "[1] واشتراط وحدة القضية في التفسير والبيان يدل على أن علماء الأصول حازوا الريادة في تأصيلهم لهذا الضابط بحيث اعتبروا النص وحدة دلالية متماسكة الأجزاء والأطراف كل جزء يحتاج إلى الأجزاء الأخرى وأن أي خلل في ضبط عناصر هذه الأجزاء والأطراف سيكون له عواقب سلبية على فهم النص .

3 – دلالة الخطاب (حمل الخطاب على الظاهر) : ومن الضوابط والشروط التي عمل الأصوليون على تأصيلها في قراءتهم للنص ضابط حمل الخطاب على الظاهر ويقصد بهذا الضابط أن المفسر يجب أن يلتزم بأعراف اللغة العربية ومنطقها في الإفهام .

وقد كان المفسرون الأوائل يعتمدون كثيرا على هذا الضابط في الفهم والتفسير لأن الظاهر كما هو متعارف عليه بين الأصوليين والمفسرين هو ما يعطيه النص بدلالته اللغوية الواضحة ، كما دل على ذلك اصطلاح التخاطب الذي اتفقت عليه الجماعة اللغوية .

---

1 – انظر الموافقات 309/3 .

والظاهر كما هو محدد بين الأصوليين هو المعنى المتبادر من تداول الخطاب لأن التخاطب يخضع لشروط ومقتضيات مسبقة بين المتخاطبين وهو المسمى عند الأصوليين بعادة العرب في الخطاب أو عرف التخاطب وأن تخطي أو تجاوز هذا القيد يعد من قبيل تحريف الخطاب عن محله .

على هذا الأساس وقع الاتفاق بين الأصوليين والمفسرين على ضرورة حمل الخطاب على الظاهر في التفسير لأن هذا الحمل يفضي إلى إدراك المعنى الحقيقي للخطاب بطريقة علمية وموضوعية بعيدا عن الذاتية والقناعات الشخصية وبعيدا عن كل ما من شأنه أن يحدث شرخا في عملية قراءة النص.

فالأصل في دلالة الألفاظ على المعاني هو المعنى الظاهر المتبادر إلى الذهن والجاري حسب عوائد العرب في القول والفهم وأن الأصل في كلام الشارع ونصوص أحكامه أنها قوالب لمدلولاتها الظاهرة والواجب العمل بهذه الظواهر : المطلق على إطلاقه والعام على عمومه ما لم يرد دليل مقنع يبيح العدول عنهما إلى غيرهما فقد " **تقرر أنا متعبدون بالجريان على مقتضى الألفاظ اللغوية إذا صدرت من الشارع ولم يثبت مخصص مانع من إجراء مقتضى اللفظ** "[1] لا يجوز أن يحمل الكلام على خلاف ظاهره إلا بمعونة الأدلة إن اختلفت الأدلة حصل القطع بأن الظاهر مراد[2] وفي هذا يقول ابن القيم " **إذا ظهر قصد المتكلم لمعنى الكلام أو لم يظهر قصد يخالف كلامه وجب حمل كلامه عل ظاهره .. والأدلة إنما تدل على ذلك وهذا حق لا ينازع فيه عالم والنزاع إنما هو في غيره إذا عرف هذا فالواجب حمل كلام الله ﷻ**

---

1 – انظر البرهان 357/1 .

2 – انظر نفائس الأصول 1107/3-1109-1129 .

فالواجب حمل كلام الله تعالى ورسوله وحمل كلام المكلف على ظاهره الذي هو ظاهره وهو الذي يقصد من اللفظ عند التخاطب ولا يتم التفهم والفهم إلا بذلك ومدعي غير ذلك على المتكلم القاصد للبيان والتفهيم كاذب عليه قال الشافعي [وحديث رسول الله ﷺ على ظاهره ومن ادعى أنه لا طريق لنا إلى اليقين بمراد المتكلم فهو ملبوس عليه ملبس على الناس فإن هذا لو صح لم يحصل لأحد العلم بكلام المتكلم قط وبطلت فائدة التخاطب وانتفت خاصية الإنسان وصار الناس كالبهائم بل أسوأ حالا]"[1].

والدعوة إلى الالتزام بظاهر الخطاب في القراءة لا يعني أن الأصوليين لا يعترفون بالتحول الدلالي لألفاظ الخطاب الموضوع للإفهام وإنما يشترطون التقيد بمنطق اللغة العربية في هذا التحول الذي يمس دلالة الألفاظ[2] وقد ظن بعض الدارسين أن الالتزام بالظاهر في التفسير يعد شكلا من أشكال الجمود عند المعاني الحرفية للنصوص لكن الحقيقة ليس كما ظنوا إذ من المؤكد بين الأصوليين أن الألفاظ في دلالتها على المعاني يعتريها نوع من التحول تبعا لسياق استعمالها وأن مراعاة سياق الخطاب أمر ضروري في التماس معنى النص وقد ذكر ابن خلدون حاجة دارس أصول الفقه بأنه " **يتعين عليه النظر في دلالة الألفاظ ولك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة..ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام فكانت كلها من قواعد هذا**

---

1 – انظر إعلام الموقعين 109/3 .

2 – فتحي الدريني : بحوث في الفكر الإسلامي المعاصر الفصول المخصصة لمنهجية الطبري في التفسير .

الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية "[1] .

وحيث أن النص المعني بالقراءة والتفسير والتأويل هو النص الديني الشرعي الذي جاء موصولا بألفاظه ومعانيه بما درج عليه العرب في طرق بيانهم وملابسات خطابهم فينبغي أن يقرأ بما يناسب لغتهم ومعطيات سياق كلامهم وفقا لمقتضى طريقة العرب في كلامها ومعهود خطابها ومقاصدها في كلامها وأساليب معانيها ومنوالها في توزيع المعاني على الألفاظ ، وهو أمر ضروري لتأسيس الفهم وتشكيل الدلالة ، ومن ثم فقد كان من ضوابط القراءة الصحيحة عند الأصوليين أن مقاربة أي نص لغوي تستدعي الوقوف على حدود لغته التي تحمل بلاغه ومعرفة مقاصد أصحابها في كلامهم وأن يؤخذ الكلام بما يوافق معهود الخطاب المتبادل بين المتكلمين وعرف المخاطب وعاداته المطردة في كلامه فكل متكلم له عرف في لفظ إنما يحمل لفظه على عرفه[2] وإن آفة النص أن يقرأ غريبا عن معهود خطابه في لغة أخرى عند قوم آخرين فتكون قراءة مضيعة لبلاغته ومدمرة لسياقه ومقاصده ومدلولاته ومغيبة للعديد من خصوصياته في إجراء اللغة وتحليل الخطاب وفهم دلالة الألفاظ على مقتضى ورود الخطاب فيكون من الخطأ والدلس على نحو ما نراه في القراءات الحداثية التي تقرأ النص الشرعي قراءة نص نثري مات صاحبه كما في المنهج البنيوي أو المنهج التفكيكي الذي يقوم على الشك في كل الأنظمة والأعراف والمقاصد والمعطيات والدلالات والقول إلى ما لا نهاية المعنى وميتافيزيقية الدلالة حتى يكبر حجم التأويل ويزداد كثافة وتماسكـــا

---

1 – انظر المقدمة 360 .

2 – انظر نفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي 589/2 – 1136/3 .

فيؤدي بطبيعة الحال كما هو معروف إلى انزلاقات دلالية لا حصر لها ولا عد توصل إلى مراد أصحابها من انتهاك حرمة النص الشرعي كما هو واضح في قراءة محمد أركون ومدرسته بين التونسين ممثلة بعبد المجيد الشرفي والصادق بلعيد وبسام الجمل ويوسف صديق وقراءة علي حرب وحسن حنفي ونصر حامد أبو زيد وطيب تزيني وجورج طرابيشي وأدونيس ، فأسباب الفساد في التأويلات كما يقول علماء الأصول " **الإعراض عن مجاري العادات في العبارات ومعانيها الجارية في الوجود** "[1] فكان من ضوابطهم " **كلما كان السامع أعرف بالمتكلم وقصده وبيانه وعادته كانت استفادته للعلم بمراده أكمل وأعم** "[2] وهذا ما يفسر لنا سبب تأكيد الإمام الشافعي في رسالته على أهمية امتلاك اللغة والإحاطة بأساليب كلام العرب " **ذلك أن من شأن الجاهل بتنوع لسان العرب واتساعه وتداخل المعاني فيه أن يخلط في فهم الخطاب الشرعي** "[3] قال ابن تيمية "**فاللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته وعرفه التي يعتادها في خطابه ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ﷺ ومراده بها عرف عادته في خطابه وتبين له مراده ما لا يتبين لغيره ولهذا ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله ﷺ ؟**

---

1 – انظر الموافقات 327/4 .

2 – انظر مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة 121/1 .

3 – انظر الرسالة ص: 179 -235 .

فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله ﷺ التي يخاطب بها عباده وهي العادة المعروفة من كلامه ثم إذا كان لذلك نظائر في كلام غيره كانت النظائر كثيرة عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو ﷺ بل هي لغة قومه ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه"[1] وقد بحث الأصوليون قضية دلالة الخطاب وفاقت عنايتهم بها اهتمامات جميع المتخصصين في حقول اللغة فالأصولي بحث في الدلالة وركز عليها لتعينه على استنباط الحكم الشرعي بظروفه وأقسامه بالكشف عنها بوساطة المعنى المستخرج من النصوص[2] .

وقد تحقق للأصوليين فهم المعنى بمستوياته المختلفة :

المعنى الحقيقي : وهو ما وضع اللفظ بإزائه أصالة وهذا ما يتكفل به علم المعجم .

والمعنى الاستعمالي : وهو الذي تجاوزت اللغة فيه ذلك المعنى الأصلي فاستعملت اللفظ في غيره على سبيل المجاز أو الكناية وهذا ما يتكفل به علم البيان .

والمعنى الوظيفي : وهو ما تؤديه الكلمة بمالها من معنى حقيقي واستعمالي في أثناء تركيبها مع غيرها وهذا ما يتكفل به علم النحو .

---

1 – انظر فتاوى ابن تيمية 7/115-169-432 .

2 – انظر البحث الدلالي عند ابن سينا : مشكور كاظم العواد ص : 24 .

فضلا عن المعاني السياقية والقرائن المتنوعة والنظرة الكلية لمجموع النصوص التشريعية على أنها وحدة إعجازية متكاملة وذلك لأن معرفة طرق دلالة النص تتوقف على معرفة هذه المعاني من معهود خطاب العرب ، فأهم ما يشغل الأصوليين هو الدلالة أو ضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى في الخطاب الذي يستثمرونه وهو الخطاب الشرعي .

وقد بحث الأصوليون العلاقة بين اللفظ والمعنى من جهتين :

نظرية وتطبيقية .

أما النظرية فتهتم بأصل اللغة وكونها توقيفا أم اصطلاحا وهو امتداد لنقاش اللغويين وكذلك القياس في اللغة جوازه أو عدمه ودلالة الأسماء الشرعية والأسماء الدينية كالصلاة والصيام والإيمان والكفر وغيرها .

أما التطبيقية فتعنى بتفسير الخطاب الشرعي فتدرس أنواع الدلالة ودلالة اللفظ على المعنى من خلال استقرائهم لها في كلام العرب[1] قال الزركشي في البرهان " **ما يستفاد من اللفظ نوعان : أحدهما متلقى من المنطوق به المصرح بذكره ، والثاني ما يستفاد من اللفظ وهو المسكوت عنه لا ذكر له على قضية التصريح ، فأما المنطوق به فينقسم إلى النص والظاهر ..وأما ما ليس منطوقا به ولكن المنطوق به مشعر به فهو الذي سماه الأصوليون المفهوم ، والشافعي قائل به وقد فصله في الرسالة أحسن تفصيل ونحن نسرد معاني كلامه : فمما ذكره أن قال : المفهوم قسمان : مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة،فأما مفهوم الموافقة فهو ما يدل على أن الحكم في المسكوت**

---

1 – انظر البحث الدلالي عند ابن سينا ص : 25 .

عنه موافق للحكم في المنطوق به من جهة الأولى وهذا كتنصيص الرب تعالى في سياق الأمر ببر الوالدين على النهي عن التأفيف فإنه مشعر بالزجر عن سائر جهات التعنيف .. وأما مفهوم المخالفة فهو ما يدل من جهة كونه مخصصا بالذكر على أن المسكوت عنه مخالف للمخصص بالذكر كقوله عليه السلام « في سائمة الغنم زكاة » هذا التخصيص يشعر بأن المعلوفة لا زكاة فيها ، وذكر الأستاذ أبو بكر بن فورك في مجموعاته فصلا لفظيا بين قسمي المفهوم فقال : ما دل على الموافقة فهو الذي يسمى مفهوم الخطاب وما دل على المخالفة فهو الذي يسمى دليل الخطاب وهذا راجع إلى تلقيب قريب "[1] .

4 – مراعاة سياق الخطاب (دلالة الاقتضاء) : وهذا الضابط ذا أهمية بالغة في فهم النص الشرعي واستنباط مدلولاته بحيث لا يكفي من قارئ النص أن يبحث عن الدلالة دون مراعاة السياق الذي جاء فيه النص كبيانٍ لصفة إلهية فيكون العدول عن تتبع المجال اللغوي حرفيا مراعاة للسياق أمرا ملزما بالضرورة حتى لا يقع سوء الفهم للنص وتحريف مدلوله وإثبات أمر لله لم يثبته لنفسه ولا أثبته له رسوله ﷺ ، فإذا كان سياق النص الشرعي حول أمر تتطلبه الفطرة في أمر البشر حمل النص على بيان ما سبق من القواعد المؤصلة وإن كان سياق النص حول أمر يتعلق بذات الله ﷻ وصفاته كان إفراد النص الشرعي بقراءة خاصة أمر ضروري لا محالة على أساس العودة إلى المعجم الخاص للقرآن الكريم لا أن نخضعه لمدلولات اللغة الحرفية .

---

1 – انظر البرهان 1/448-450 .

فمعرفة دلالة النص تفرض العودة إلى معاجم خاصة إذ أن هناك نصوصا تشريعية يدل ظاهرها وسياق خطابها على أحكام تتعارض على ما عليه الشارع من الصفات وما يريده من العباد ولرفع هذه الحالة عمد الأصوليون إلى تأويل النص أو تفسيره أو تعريفه تعريفا خاصا يكون له معجما بما يتفق مع صفات الشارع وما أراده من المكلفين :

فمن ذلك قوله تعالى ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[1] ففي ضوء ما عليه النص القرآني من صفات فإن الأخذ بظاهر هذا النص وإجراءه عليه ، وذلك بالنظر إلى المنطق اللغوي في تفهمه وإهمال المنطق الشرعي ضرب من المحال ، ذلك لأن ظاهره يقتضي إثبات صفة النسيان لله ﷻ وهذا أمر يتعارض مع عقيدة المؤمن ويخالف مخالفة واضحة وصريحة قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[2] أو قوله تعالى على لسان نبيه موسى ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾[3] فيكون الرجوع إلى مدلولات المصطلح وفق معجم القرآن الخاص أمر ملزم بالضرورة لعدم الوقوع في سوء الفهم والتحريف والإخلال بالعقيدة .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان عيسى ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[4] فالأخذ بظاهر النص وفق المنطق اللغوي وإهمال غيره يفرض على قارئ النص ومفسره إثبات النفس لله تعالى .

---

1 – سورة التوبة الآية :67 .

2 – سورة مريم الآية : 64 .

3 – سورة طه الاية : 52 .

4 – سورة المائدة الآية : 116 .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[1] فإن الأمر الوارد في هذا النص بالإيمان والكفر لا يدل على التخيير والإباحة لأن في الإباحة استواء الطرفين ولا استواء أبدا بين الإيمان والكفر فالأول نور وهدى والثاني ظلمات وضلال وأن الله قد حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر وقبحه في نفوسنا ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾[2] وعليه فقد حمل الأصوليون الأمر على الوعيد والتهديد للذين كفروا ، هذا فضلا عن مراعاة سياق خطاب النص فإن فيه توعدا بالنار لمن ترك الإيمان وكفر وأشرك .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾[3] فالمفهوم الوارد في النص لا يحمل على كون الله ﷻ يعذب المؤمن به الصادق في إيمانه ويرحم الكافر المشرك به المصر على كفره لوجود مشيئة الله فيشرك الإنسان ويكفر حاملا الأمر على احتمال رحمة الله به ظانا منه أن مشيئة الله لا تتعلق بكفر ولا إيمان مما يفضي إلى التعرض مع صفات الشارع في رحمة المؤمن وسلبها عن الكافر ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4] ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[5] .

---

1 – سورة الكهف الآية : 29 .

2 – سورة الحجرات الآية : 07 .

3 – سورة العنكبوت الآية : 21 .

4 – سورة الأعراف الاية : 156 .

5 – سورة الأحزاب الآية : 08 .

فيحمل النص على كون المشيئة راجعة إلى الإنسان نفسه فإن شاء الإنسان أن يرحمه الله آمن به واتقاه وإن شاء الإنسان أن يعذبه الله كفر به وأنكره ، هذا فضلا عن مراعاة سياق خطاب النص الدال على وعيد الكفار ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** ﴾[1]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى ﴿ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[2] فالأمر الوارد في النص لا يحمل على الأذن فيكون الإنسان حرا مطلقا وأنه لا يحاسب على فعله ولو ارتكب الموبقات والمهلكات فيزني ويسرق ويقتل ويفجر ويفسد ويهلك الحرث والنسل ويظهر العداوة والبغضاء عاذرا في ذلك نفسه بأن الله ﷻ أذن له في العمل بما شاء فالله لا يعدوا أن يكون به بصيرا لا محاسبا ، مما يفضي هذا الأمر إلى التعرض مع صفات الله في محاسبة العباد على أعمالهم خيرا كانت أم شرا ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾[3] هذا فضلا عن مراعاة سياق خطاب النص الدال على المحاسبة وتتبع الفعل والعمل ﴿ **بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[2] .

وفي هذا المعنى ما ذكره السرخسي فيما يترك به أصل الكلام وهو حمله على الحقيقة ومن ذلك دلالة من وصف المتكلم فقال في هذا الشأن " **قوله تعالى ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾**[4]

---

1 – سورة الكهف الآية : 29 .

2 – سورة فصلت الآية : 40 .

3 – سورة الزلزلة الآيات 07-08 .

4 – سورة الإسراء الآية 64 .

فإن كل واحد يعلم بأنه ليس بأمر لأنه لا يجوز أن يظن ظان بأن الله تعالى يأمر بالكفر بحال فتبين بالمراد الاقدار والإمكان لعلمنا أن ما يأتي به اللعين يكون بإقدار الله تعالى عليه إياه "[1] ، ولأهمية استحضار ما عليه المتكلم المخاطب عموما من صفات لفهم خطابه وتتريله في مكانه الصحيح قال أيضا **" قول القائل : اللهم اغفر لي يعلم أنه سؤال لا أمر لوصف المتكلم وهو أن العبد المحتاج إلى نعمة مولاه لا يطلب منه النعمة إلزاما وإنما يسأله ذلك سؤالا "**[1].

ومثال سابق القول المبين ما جاء في الحديث ، للتوسعة فقط وزيادة البيان وإلا فكلامنا حول النص القرآني ، قول الرسول صلى الله عليه وسلم **«** إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه **»**[2] ففي ضوء ما عليه الشارع من الصفات فإن الأخذ بظاهر هذا الحديث وإجراءه عليه ضرب من المحال ذلك لأن ظاهره يقتضي وضع الخطأ والنسيان والإكراه بالكلية والدوام عن أفراد الأمة جميعهم بلا استثناء .

والناظر في واقع وحال أراد الأمة ومعاشهم يجد أن ذلك كله صادر عنهم وهذا النوع من الاستمساك الحرفي الظاهري بالنص يوقعنا ي الالتباس ويؤذن بتكذيب الشارع لأن واقع حال الأمة يغاير ما نطق به المقال .

وبما أن الوحي معصوم مطلقا من الخطأ والجهل والكذب وما إلى ذلك من صفات العجز والنقص فقد اتفقت كلمة الأصوليين وعلماء المسلميـــن على

---

1 – انظر المحرر 144/1 .

2 – رواه ابن ماجه حديث رقم : 2045 .

وجوب التصرف في النص بما يتوقف عليه صدق الشارع وعصمته كان المقتضي للتصرف فيه هو درء الكذب والتعارض عن كلام الشارع لذلك قرر الأصوليون إضافة كلمة إلى النص وهذه الزيادة المضافة إلى النص يجب تقديرها مقدما في النص انطلاقا من المعجم الخاص للقرآن كشرط توقف عليه حسن فهم النص واستقامة معناه ويسمى هذا الموضوع عند الأصوليين بدلالة الاقتضاء أو باقتضاء النص وفي هذا يقول الآمدي "**يتعذر حمله على حقيقته لإفضائه إلى الكذب في كلام الرسول ﷺ ضرورة تحقق الخطأ والنسيان في حق الأمة فلابد من إضمار حكم يمكن نفيه من الأحكام الدنيوية أو الأخروية ضرورة صدقه في كلامه** "[1] وقال عبد العزيز البخاري " **إنما سمي هذا الشيء بالمقتضي لأنه أمر اقتضاه النص وإنما شرط تقدمه عليه لأن ذلك أمر اقتضاه النص لصحة ما تناول النص إياه فتكون صحة النص متوقفة عليه توقف المشروط على الشرط فيقدم لا محالة** "[2] وبناءا عليه أضاف بعضهم كلمة الحكم إلى النص بينما قدر آخرون منهم كلمة الإثم كالسرخسي في المحرر[3] والغزالي في المستصفى[4] والتفتازاني في شرح التلويح[5] .

---

1 – انظر الإحكام في أصول الأحكام 364/2 .

2 – انظر كشف الأسرار 119/1.

3 – 145/1 .

4 – 187 .

5 – 257/1 .

وبعد هذا التقدير في اقتضاء النص كأن الحديث ورد بصيغة **إن الله وضع عن أمتي حكم/إثم الخطأ والنسيان والإكراه.**

فمراعاة سياق الخطاب لفهم دلالة النص وصرفه عن التعارض وسوء الفهم والتحريف أمر ضروري وملزم ويدخل في ذلك هم مراعاة النص من كون مجيئه مطلقا أو مقيدا فإن جاء مطلقا حل على الشائع المنتشر من جنسه وإن جاء مقيدا بقيد أو أكثر يقلل من شيوعه .

5 – ترك الاستفصال : وهو عبارة عن قاعدة أصولية تقول : ترك الاستفصال عن تفاصيل مسألة من المسائل من الشارع مع قيام الاحتمال الذي من شأنه أن يؤثر في الحكم الشرعي يترل مترلة العموم في المقال[1] وهذه القاعدة مستوحاة من صفات الشارع في البيان الشرعي ما دام الشارع وهو بصدد بيان حكم المسألة لم يستفصل عن تفاصيل القضية المطروحة في النص فإن ترك الاستفصال دليل على سريان الحكم في كل احتمال تقبله طبيعة ذلك النص ولا يتعارض معه حملا لكلامه وتفسيرا له على ما يليق به تتريها له عن النسيان والتناسي أو الغفلة والتقصير في بيان الشرع وتفهيمه ، قال الدكتور صالح قادر الزنكي "**فكل تلك الأمور تدخل في عموم الحكم ما دام النص الشرعي قد أعرض ونأى عن بيان شروط وتفصيل قيود أثناء إمداد التصرف أو الواقعة بالحكم الشرعي فلا داعي بعد ذلك إلى استحداث شروط وقيود إضافية تتعدى هذا العموم فيقر القاضي المسلم صحة زواج غير المسلمين إذا أسلما ولا يطالبهما بتجديد الــعقد بعد**

---

1 – انظر الأشباه والنظائر للسبكي 137/2 . وإرشاد الحول للشوكاني 478 . وكتاب القواعد للحصني 75/3 .

إسلامهما وليس له أن يسأل عن توافر شروط العقد الإسلامي في هذا الزواج من حضور شاهدين وإذن الولي والكفاءة وغيرها إذا كان العقد خلوا من محرمات الزواج المعروفة كالنسب والرضاع والمصاهرة وتقيد بالعدد المسموح به شرعا "[1] ويمكن أن تدخل هذه القاعدة تحت القاعدة الآتية بعدها وهي قاعدة إدراك فقه النص .

6 – إدراك فقه النص : ويقصد به ضبط العلاقة بين القارئ وفقه النص ويقصد به أيضا سلطة النص وهي قدرته على تحقيق معنى ما يتمتع بقدر من الإلزام ويقبل التثبيت[2] حتى ينضبط الفهم ويصح الاستنباط ويظهر النظر الصحيح وذلك من خلال المعطيات التي يقدمها النص بالفهم والافهام الكامنين فيه بحيث يضع بذلك حدودا تلزم القارئ بها من إصغاء للنص واكتشاف دلالاته وفهم معناه والتعبد بمقتضاه[3] لذلك فقد عمل الأصوليون على وضع هذا الضابط ملزمين به للقارئ مع النص المساءلة واختبار الاحتمالات والغوص في أعماق الدلالة بقسميها: دلالة النص ودلالة معقول النص ، حتى لا يكون النص الديني عبارة عن لعبة لكل من أراد أن يلعب بها ، فهو بلاغ يجب تأديته بأمانة كما أراده صاحبه لفظا ومعنى بلا زيادة ولا نقصان ولا تقديم ولا تأخير ولا حذف ولا تلبيس وهذا يقتضي صون كلام المتكلم من العبث وكذلك صون فهم السامع من الخطأ وهو ما عبر عنه ابن القيم بقوله "**فهم لوازم المعنى ونظائره ومراد المتكلم بكلامه ومعرفة حدود**

---

1 – انظر البعد المصدري لفقه النصوص . ص : 117 .

2 – انظر إسهام الأصوليين في دراسة صلة اللفظ بالمعنى للدكتور مصطفى بنحمزة ص : 418 .

3 – انظر الموافقات 410/3 .

كلامه بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد ولما كان المقصود بالخطاب : دلالة السامع وإفهامه مراد المتكلم من كلامه وأن يبين له ما في نفسه من المعاني كان ذلك موقوفا على أمرين : بيان المتكلم وتمكن السامع من الفهم فإن لم يحصل البيان من المتكلم أو حصل ولم يتمكن السامع من الفهم لم يحصل مراد المتكلم فإذا بين المتكلم مراده بالألفاظ الدالة على مراده ولم يعلم السامع معاني تلك الألفاظ لم يحصل له البيان "[1] وقال الشاطبي " **فاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب لأنه المقصود والمراد وعليه ينبني الخطاب ابتداء وكثيرا ما يغفل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة فتلتمس غرائبه ومعانيه على غير الوجه الذي ينبغي فتستبهم على الملتمس وتستعجم على من لم يفهم مقاصد العرب فيكون عمله في غير معمل ومشيه على غير طريق والله الوافي برحمته "**[2]

من ذلك يكون التزام القارئ بمقاصد النص وطرق بيانه وأساليب فهمه أمر ضروري وملزم وأن أي قراءة لا تخضع لتلك الشروط فإنما هي عبارة عن تهجم على مفهوم النص ومقصوده وفقهه ، فلا بد من فهم معنى اللفظ فهما مبنيا على تلك القواعد والضوابط وقد بين القرافي بعض العلاقات التي تجمع بين اللفظ والمعنى فقال :" **يحمل اللفظ على :**

الحقيقة دون المجاز

والعموم دون التخصيص

والإفراد دون الاشتراك

---

1 – انظر مختصر الصواعق المرسلة للموصلي 502/1 .

2 – انظر الموافقات 88/2-89 .

والاستقلال دون الإضمار

وعلى الإطلاق دون التقييد

وعلى التأصيل دون الزيادة

وعلى الترتيب دون التقديم والتأخير

وعلى التأسيس دون التأكيد

وعلى البقاء دون النسخ

وعلى الشرعي دون العقلي

وعلى العرفي دون اللغوي " إلا أن يدل دليل على خلا ذلك "[1].

7 – استحضار القرائن ومقتضيات الأحوال : المحيطة بالنص واستبصار ما سيق الكلام له وما تعلق به من معان وما هدت القرائن إليه أو ما منعت منه وصدت عنه[2] من اللازم جعل القرائن والظروف وأسباب النزول في الآيات وأسباب الورود في الأحاديث شواهد على مراد النصوص وعللها في الحقيقة والمجاز والتوسيع والتضييق والإطلاق والتقييد والتعميم والتخصيص فإن في ذلك ما يعين على فهم النص والوقوف على مراد المتكلم .

وهذا أمر ضروري لتأسيس الفهم وإدراك العلاقات القائمة بين الألفاظ والمعاني في النص ولهذا فإن صيغتي الأمر والنهي الذين هما عمدة الخطاب الشرعي **" لا تنفك قط عن قرينة من حال المأمور والمأمور به والأمر ولذلك لم يستغن المتكلمون والسامعون عن أن تحف بالكلام ملامح السياق ومقام الخطاب ومبينات من البساط لتتظافر تلك الأشياء الحافة**

---

1 – انظر الذخيرة 72/1 .

2 – انظر معهود العرب في الخطاب ص : 08 .

بالكلام على إزالة احتمالات كانت تعرض للسامع في مراد المتكلم من كلامه "[1] فالقرائن هي التي تضبط حركة الكلمات عند المتكلم كما تضبط حركة المعنى في فهم المخاطب ومن لم يفقه مساق الكلام وسياقه عجز عن إبصار حركة المعنى في الكتاب والسنة **ولذلك تتقوى التفاسير في الكلام بقرائن الأحوال إنها المميزة للمعاني المقصودة للمتكلم**[2] دلالة النص تنكشف أولا من خلال التحليل اللغوي لبنائه ومن خلال العودة لأسباب نزوله وأسباب وروده ثانيا وإن إهدار الجانبين أو انتزاع النص من ظرفيته القابضة لفهمه يعوق عن اكتشاف دلالته وسبر أغواره وحسن فهمه وتأويله إذ قد يؤدي إلى عزل النص عن سياقه وإطاره العام إلى هدر معناه وتمييعه أو تحميله دلالات بعيد متعذرة[3] يقول الشاطبي " **معرة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع إذ الكلام الواحد يختلف همه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك : وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه ومعرة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد والجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الاحتمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النزاع** "[4] .

---

1 – انظر مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور ص : 80 .

2 – انظر الفتوحات 136/1 .

3 – انظر معهود العرب في الخطاب 08 .

4 – انظر الموافقات 347/3 .

المنهج الفقهي في قراءة النص القرآني

لقد تعامل الفقهاء مع النص القرآني تعاملا يكاد يكون شبيها بتعامل الأصوليين غير أن الريادة كانت للأصوليين في وضع القواعد المتينة للتعامل مع النص القرآني ضمانا لشروط القراءة السليمة ، وقد وضع الفقهاء مجموعة من الأصول واعتبروها شرطا أساسيا في قراءة النص القرآني ، قال الفراهي **"وهذه الأصول تقسم إلى قسمين : الأول ما يعصم من الزيغ في التأويل والثاني ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله"**[1] ومن أهم تلك المناهج التي أخذ بها الفقهاء في تفسير وقراءة النص الشرعي :

1 – التفسير بالمأثور : أو مذهب الرواية وقد تشدد أصحاب هذا المنهج في تفسير القرآن تشددا كبيرا حتى روي عن الأصمعي أنه كان إذا سئل عن شيء من الكتاب أو السنة يقول : العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب أو السنة أي شيء هو ؟ ، وهذا المنهج من أهم الاتجاهات في التفسير وأجدرها بالعناية والاهتمام ، وأقدم المناهج على الإطلاق وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

أ – تفسير القرآن بالقرآن : أو قراءة النص بالنص ، وتفسير القرآن بالقرآن من أشرف أنواع التفسير وأجلها ، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله من الله ﷻ [2] لقوله تعالى ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** ﴾[3]

---

1 – انظر التكميل في أصول التأويل ص:13 .

2 – انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 03/1 .

3 – سورة آل عمران الآية : 07 .

وقوله أيضا ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[1] ، وذلك أن القرآن الكريم يصدق بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[2] فما أُجمل في موضع فُصِّل في موضع آخر وما أُبهم في مكان بُيِّن في آخر وما أُطلق في سورة أو آية قُيد في أخرى وما جاء عاما في سياق خُصص في سياق آخر ولا بد من ضم الآيات بعضها إلى بعض حتى يتكامل الفهم ويستبين المقصود من النص[3] وأمثلة ذلك :

- قوله تعالى ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[4] فقد فسرت آية أخرى المراد من كلمة الدين وذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾[5]

- قوله تعالى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[6] وبينت آية أخرى المنعم عليهم حيث قال تعالى ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾[7]

---

1 – سورة القيامة الآيات 18-19 .

2 – سورة النساء الآية 82 .

3 – انظر كتاب المرجعية العليا ص 44 .

4 – سورة الفاتحة الآية 03 .

5 – سورة الانفطار الآيات 17 -18 -19 .

6 – سورة الفاتحة الآية 06 .

7 – سورة النساء الآية :69 .

- قوله تعالى ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1] فقد فسرت آية أخرى المراد من كلمة (كلمات) وذلك في قوله تعالى ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2]

- قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ﴾[3] فالدم كلمة عامة تشمل جميع أنواعه ، وقد فسرتها آية أخرى وذلك في قوله تعالى ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾[4] فبينت أن المراد بالآية الأولى هو الدم المسفوح .

- قوله تعالى ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾[5] فقد فسرت آية أخرى المراد من كلمة (الذين يتبعون الشهوات) وذلك في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾[6]

- قوله تعالى ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾[7] فقد فسرت آية أخرى المراد من كلمة (إلا ما يتلى عليكم) وذلك في قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾[8]

---

1 – سورة البقرة الآية 37 .

2 – سورة الأعراف الآية 23 .

3 – سورة البقرة الآية 173 .

4 – سورة الأنعام الآية 145 .

5 – سورة النساء الآية 27 .

6 – سورة النساء الآية 44.

7 – سورة المائدة الآية 01

8 – سورة المائدة الآية 03.

- قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[1] فقد فسرت آية أخرى المراد بكلمة (ليلة) وذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[2].

- قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾[3] فقد فسرت آية أخرى المراد من كلمة (ظلم) وذلك في قوله تعالى ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[4] .

- قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[5] فقد فسرت آية أخرى المراد من كلمة (ما قصصنا عليك من قبل) وذلك في قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[6] .

- قوله تعالى ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾[7] فقد فسرت آية اخرى المراد من كلمة (سجين) وذلك عند قوله تعالى ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾[8].

---

1 – سورة الدخان الآية 03 .

2 – سورة القدر الآية 01 .

3 – سورة الأنعام الآية 82

4 – سورة لقمان الآية 13.

5 – سورة النحل الآية 118 .

6 – سورة الأنعام الآية 146.

7 – سورة الحجر الآية 74 .

8 – سورة الذاريات الآية 33 .

ومن أجود ما قيل في تفسير القرآن بالقرآن ما ذكره الإمام المجتهد المحقق محمد بن إبراهيم اليمني الشهير بابن الوزير حيث قال "**تفسير القرآن بالقرآن : وذلك حيث يتكرر ذكر الشيء ويكون بعض الآيات أكثر بيانا وتفصيلا ، وقد جمع من هذا القبيل تفسير مفرد ذكره الشيخ تقي الدين (ابن دقيق العيد) في شرح العمدة ..ومنه حمل المطلق على المقيد والعام على الخاص كنفي الخلة والشفاعة في آية مطلقا..ومنه الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف كخلق بني آدم من تراب..ومنه تقديم المنطوق على المفهوم وأوجب منه تقديم تفصيل القول المنطوق على عموم المفهوم لأن الخاص يقدم على العام المنطوق فكيف لا يقدم على عموم المفهوم**"[1]

ب – تفسير القرآن بالسنة : أي تفسير القرآن بما ورد عن النبي ﷺ، ويعتبر هذا الشرط جزءا أساسيا في التفسير بالمأثور ولما ورد عن ابن تيمية قال [**إن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له بل قال الإمام الشافعي : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن ، قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾**[2] وقال تعالى ﴿ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[3]

---

1 – انظر إيثار الحق على الخلق ص : 161-162 .

2 – سورة النساء الآية 105 .

3 – سورة النحل 64 .

ولهذا قال ﷺ « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه »[1] يعني السنة][2] وقد عرض الإمام ابن الوزير لهذا الموضوع في إيثار الحق فقال **[النوع الثالث : التفسير النبوي وهو مقبول بالنص والإجماع ، قال تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[3] وقال ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[4] وفي الحديث « لا يأتي رجل مترف متكئ على أريكته يقول لا أعرف إلا هذا القرآن ما أحله أحللته وما حرمه حرمته ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه ألا وإن الله حرم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير »][5]** ، وقد فسر النبي ﷺ عددا كبيرا من الآيات نذكر منها على سبيل المثال :

- ما ورد في قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾[6] فعن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله : ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟ قال رسول الله ﷺ « إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين » ثم قال: « لا بل هو سواد الليل وبياض النهار »[7].

---

1 – رواه أحمد وأبو داود عن المقدام بن معد يكرب كما في صحيح الجامع الصغير 2643 .

2 – انظر أصول التفسير لابن تيمية ص : 93-95 بتحقيق د عدنان زرزور وأيضا تفسير ابن كثير 3/1 طبع الحلبي وعمدة التفسير للعلامة أحمد شاكر 41.44/1طبع دار المعارف .

3 – سورة الحشر الآية 07 .

4 – سورة النحل الآية 44 .

5 – انظر إيثار الحق على الخلق 163-164 .

6 – سورة البقرة الآية 187 .

7 – أخرجه البخاري 4510 .

- ما ورد في قوله تعالى ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾[1] فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « قيل لبني إسرائيل ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾[1]فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا : حطة : حبة في شعرة »[2] .

- ما ورد في قوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾[3] فعن علي أن النبي ﷺ قال يوم الخندق « حبسونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس ملأ الله قبورهم وبيوتهم –أو أجوافهم- نارا »[4] .

- ما ورد في قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا ﴾[5] فعن يزيد بن أبي حبيب قال عطاء : سمعت جابر بن عبد الله سمعت النبي ﷺ يقول :« قاتل الله اليهود لما حرم الله عليهم شحومهما جملوه ثم باعوه فأكلوها »[6] .

- ما ورد في قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾[7] فعن سعيد ابن يزيد عن النبي ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين »[8] .

---

1 – سورة البقرة الآية 58 .
2 – أخرجه البخاري 4479 .
3 – سورة البقرة الآية 238 .
4 – أخرجه البخاري 4533 .
5 – سورة الأنعام الآية 146.
6 – أخرجه البخاري 4633 .
7 – سورة البقرة الآية 57 .
8 – أخرجه البخاري 4639 .

ج – تفسير القرآن بأقوال الصحابة : وذلك لما امتازوا به من مشاهدة أسباب النزول وقرائن الأحوال مع سليقتهم في اللغة وصفاء فهمهم وسلامة فطرهم وقوة يقينهم ، قال ابن تيمية [**إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وعبد الله بن مسعود ، الذي قال : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيم نزلت**][1] .

ومثال تفسير الصحابة لبعض الآيات :

– ما ورد في قوله تعالى ﴿ **وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ** ﴾[2] قال ابن عباس : الأزلام : القداح يقتسمون بها في الأمور والنصب أنصاب يذبحون عليها .[3]

– ما ورد في قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ** ﴾[4] قال ابن عباس : الصفوان : الحجر ويقال الحجارة الملس التي لا تنبت شيئا والواحدة صفوانة بمعنى الصفا والصفا للجميع .[5]

– ما ورد في قوله تعالى ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾[6] قال أبو هريرة خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام .[7]

---

1 – انظر أصول التفسير 95-97 .

2 – سورة المائدة الآية 90 .

3 – أخرجه البخاري .

4 – سورة البقرة الآية 158 .

5 – انظر صحيح البخاري قبل 4495 .

6 – سورة آل عمران الآية 110 .

7 – أخرجه البخاري 4557 .

والمعيب في هذا التفسير – أي التفسير بالمأثور – هو كثرة الأخبار المروية عن بني إسرائيل أو ما يعرف بالإسرائيليات وذلك بسبب النقل عن عدد من التابعين الذين كانوا من أهل الكتاب قبل أن يدخلوا في الإسلام والذين كانوا كثيرا ما يسألون عما في كتب أهل الكتاب ، ودخلت هذه الأخبار في مجال التفسير بالمأثور ، ومن هنا وجب على من يقرأ في كتب التفسير أن يكون واعيا للموقف السليم الذي يجب أن يقفه المسلم من الإسرائيليات ، ويمكن تلخيص هذا الموقف كما يأتي :

1 – ترد كل الإسرائيليات التي تعارض القرآن أو صحيح السنة أو تعارض أصلا شرعيا مقررا قال الشيخ محمد أبو زهرة [**وإن المستقرئ لكتب التفسير المشتملة على الإسرائيليات يرى أن أكثر ما دس فيها من هذا القبيل**][1].

2 – الروايات الإسرائيلية الموافقة للقرآن مقبولة ولكن لنا غنية عنها بما في القرآن .

3 – الروايات التي لا تعارض القرآن ولا توافقه يتعامل معها بنوع من الحذر والانتباه والحياد ، لا نكذبها ولا نصدقها فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا »[2] قال ابن الملك تعليقا على هذا الحديث [**إنما نهى عن تصديقهم وتكذيبهم لأنهم حرفوا كتبهم وما قالوه إن كان من جملة ما غيروه فتصديقهم يكون تصديقا بالباطل وإن لم يكن كذلك يكون تكذيبهم تكذيبا لما هو حق**][3]

---

1 – انظر المعجزة الكبرى 595 .

2 – انظر صحيح البخاري تفسير البقرة .

3 – انظر مشارق الأزهار 220/1 .

2 – التفسير بالرأي : أو تفسير النص بالعقل ومعناه تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها .

وكان أول من استعمل رأيه في التفسير الإمام ابن جرير الطبري وذلك بعد استعراضه لمختلف التفاسير في زمنه وتمحيصها وترجيح بعضها على بعض وإبداء رأيه الخاص مستعينا في ذلك باللغة وأسرارها وبمعرفته لتقاليد العرب وآدابهم وثقافته الواسعة في فهم طبائع الأشياء .[1] وقد قام بين العلماء خلاف شديد حول هذا التفسير فمنهم من منعه ومنهم من أجازه .

فأما المانعون فقد ذهبوا إلى حظره وتحريمه واستدلوا على ذلك بأدلة أهمها :

1 – التفسير بالرأي قول على الله بغير علم وهو غير جائز لقوله تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2] وقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[3] .

2 – الوحيد الذي يجوز له البيان هو رسول الله ﷺ لقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4] وليس لغيره إلا أن ينقل قوله بعد تحري ما صح وقولهم هذا يخرج أقوال الصحابة من دائرة المأثور .

---

1 – انظر القرآن وإعجازه العلمي لمحمد إسماعيل إبراهيم 37 .

2 – سورة الأنعام الآية 144 .

3 – سورة الحج الآية 8 .

4 – سورة النحل الآية 44 .

3 – استدلوا بقوله ﷺ « اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »[1] وبحديث « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »[2] .

4 – امتناع كثير من الصحابة والسلف من القول في تفسير القرآن كأبي بكر وسعيد بن المسيب والشعبي والأصمعي .

وأما المجيزون فقد قالوا :

1 – التفسير بالاجتهاد ليس قولا على الله بغير علم وإنما هو استخدام العقل في فهم كلام الله فقد سأل رسول الله ﷺ معاذا حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال النبي ﷺ « فإن لم تجد ؟ » قال معاذ : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال :« فإن لم تجد؟ » قال معاذ : اجتهد رأيي ، فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال :« الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله »[3] .

2 – قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4] بأن الذي ورد بيانه عنه ﷺ كفى عن كل تفسير وأما الذي لم يرد عنه ﷺ بيانه ففيه مجال لأن يعمل أهل العلم تفكيرهم فيه ويقفوا على أسراره .

---

1 – رواه الترمذي باب من فسر القرآن برأيه .

2 – رواه أبو داود والترمذي وهو ضعيف ففي سنده سهيل بن أبي خرم وهو ضعيف .

3 – رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي .

4 – سورة النحل الآية 44 .

3 – المراد من كلمة (الرأي) الواردة في الحديثين هو الرأي الذي يغلب على صاحبه من غير دليل ، والهوى الذي يميل إليه المرء ولو كان الحق في غير جانبه وأن النهي في الحديث محمول على من يقول في القرآن بظاهر العربية دون الرجوع إلى أخبار الصحابة الذين عاينوا تتريله ، ومن غير أن يتقيد بشروط التفسير ، قال الغزالي في الإحياء [**وأما النهي في الحديث فإنه يترل على أحد وجهين : أحدهما أن يكون للمفسر في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . والوجه الثاني من التفسير بالرأي : أن يسارع المفسر إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ التي هي أكثر من معنى**][1] .

4 – أن إحجام من أحجم من الصحابة والسلف عن التفسير بالرأي إنما كان منهم ورعا ويمكن أن يكون إحجامهم مقيدا بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه ، قال الدكتور يوسف القرضاوي [**وأما ما ورد عن بعض السلف من آثار الامتناع عن التفسير فيبدوا أنهم توقفوا عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم ، وخالفهم غيرهم من جلة السلف فروي عنهم الكثير من التفسير ولا سيما من كبراء الصحابة مثل علي وابن مسعود وابن عباس**][2] .

---

1 – انظر إحياء علوم الدين 298/1 .

2 – انظر المرجعية العليا 38 .

وقال ابن تيمية [**هذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾**[1]][2] وقال الدكتور محمد بن لطفي الصباغ [و لم يكتف هؤلاء العلماء برد أدلة المانعين وإنما احتجوا بأدلة عديدة سنقتصر على إيراد أهمها :

1 – قالوا : أن القرآن نفسه يأمر بالتدبر والاستنباط واستشهدوا بقوله تعالى ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[3] وبقوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[4] وبقوله عز وجل ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[5] ولا يكون التدبر إلا بالتأمل الذي يعتمد على الفهم وإعمال الفكر والاجتهاد وبذلك يكون القرآن نفسه أمر بالتفسير بالرأي ، فتدبر القرآن متوقف على فهمه ، ولا نستطيع أن نفهم الآيات التي لم يرد في شرحها أثر أو حديث إلا بأن نجتهد في تفسيرها ضمن الشروط التي نص العلماء على ضرورة توافرها .

---

1 – سورة آل عمران الآية 187 .

2 – انظر مقدمة في أصول التفسير 114-115 .

3 – سورة النساء الآية 83 .

4 – سورة محمد الآية 24 .

5 – سورة ص الآية 29 .

2 - لو كان الاجتهاد بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزا ولتعطلت بسبب ذلك كثير من الأحكام الشرعية][1] .

وقد اشترط علماء هذا المنهج العديد من القواعد والضوابط التي يجب على المفسر مراعاتها أثناء قراءة النص القرآني وسماها البعض خطوات التفسير الأمثل واعتبروها أصولا للتفسير لا يجب الخروج عنها ، قال الفراهي [**وهذه الأصول تقسم إلى قسمين : الأول ما يعصم عن الزيغ في التأويل والثاني : ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله**][2] .

ومن أهم الأصول التي يجب مراعاتها لمن وجب له حق النظر في النص القرآني أثناء عملية التفسير ما يلي :

1 – تفسير النص القرآني بالنص القرآني : أي تفسير القرآن بالقرآن .

2 – تفسير النص القرآني بالنص النبوي : أي تفسير القرآن بالسنة .

3 – تفسير النص القرآني بقول الصحابي : لأن الصحابة هم الذين شاهدوا القرائن والأحوال التي رافقت نزول القرآن ما يجعل فهمهم للآيات أدق وأعم.

---

1 – انظر لمحات في علوم القرآن 283 .

2 – انظر التكميل في أصول التأويل ص 13 .

المحور الثاني

دراسة مشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني

التسلسل التاريخي لمشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني

يكاد يجمع الباحثون والدارسون على أن قضية قراءة النص القرآني لها صلة وثيقة بالاستشراق ، ولذلك فإذا أردنا معرفة بدايات ظهور مناهج القراءة الحديثة للنص القرآني كان لازما النظر إلى بدايات الاستشراق ، ولكن المهم هنا ليس هو معرفة متى ظهر مفهوم مستشرق أو استشراق ، وإنما المهم هو معرفة متى بدأت الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا ، ومتى بدأ الاشتغال بالإسلام والحضارة الإسلامية سواء بالقبول أو الرفض ، فالدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل في ذلك الصراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والمسيحي في الأندلس وصقلية ، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته وتقاليده ، وقد نشط اللاهوتيون الأوربيون في ذلك الوقت المبكر ضد الإسلام وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه محمد ﷺ وظهرت حكايات تصف الإسلام بالخيال والمسلمين بعباد الأصنام مثل أنشودة **رولاند** الشهيرة وغيرها ، وفي مقابل هذه الصورة البغيضة للإسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول إلى معرفة موضوعية في مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية ، وبدءا من عام 1130م كان العلماء المسيحيون في أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية في الفلسفة والعلوم وكان لرئيس أساقفة طليطلة وغيره الفضل في إخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربية ، ورافقت ذلك محاولات خلال القرن الثاني عشر للتعرف على الإسلام بقدر من الموضوعية ، ولكن مع الهدف الواضح

والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الإسلامية الإلحادية ، من أجل ذلك قام بطرس رئيس رهباني كلوني بتشكيل جماعة من المترجمين في إسبانيا يعملون من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الإسلامي ، و لم يكن من السهل في ذلك الوقت فصل الاستشراق عن التنصير أو عن الدافع الديني بصفة عامة فالدافع الديني كان هو السبب الأول في نشأة الاستشراق ، وقد كان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغات المسلمين لغرض التنصير هو روجر بيكون الذي كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحي ، ولبلوغ هذا الغرض اشترط :

- معرفة اللغات الضرورية .
- دراسة الدين الإسلامي .
- دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها[1] .

وقد صادق مجمع فيينا الكنسي عام 1312م على أفكار **بيكون** وتمت الموافقة على تعليم اللغة العربية في خمس جامعات أوروبية وهي جامعة باريس وأكسفورد وبولونيا وسلمنكا وجامعة المدينة البابوية Kurie .

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية في نهاية العصر الوسيط تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية وكان للروابط الاقتصادية لكل من إسبانيا وإيطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر أثر كبير في دفع حركة الدراسات الاستشراقية ، وفي عام 1539م تم إنشاء أول كرسي للغة العربية في **الكوليج ذي فرانس** في باريس وشغل هذا الكرسي **جيوم بوستل** الذي يعد أول المستشرقين الذين أسهموا في إثراء دراسة اللغات الشرقية .

---

1 – انظر كتاب ساذرن ص: 76 .

وهو القائل [**ليس هناك أحد يستطيع أن يرفض وسائل علاج الطب العربي فابن سينا يقول في صفحة واحدة أو صفحتين أكثر مما يقوله جالينوس في خمسة أو ستة مجلدات كبيرة**][1] .

وفي عام 1586م أصبح من السهل طباعة الكتب العربية في أوروبا عن طريق المطابع التي أقامها الكاردينال **فريناند المديسي** ، وقد تم حينذاك طباعة كتب عربية قيمة من بينها مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة[2] .

وفي سنة 1613م تم إنشاء كراسي للغة العربية بجامعة لندن وسنة 1636 بجامعة كمبردج ، مما سمح عبر مرور السنوات بظهور العديد من الكتب الأوروبية التي تختص في دراسة العالم الإسلامي ككتاب **"التاريخ النقدي لعقائد وعادات أمم الشرق" لريتشارد سيمون** سنة 1684م وكتاب **"القاموس التاريخي والنقدي"** للفيلسوف **بيير بايل** سنة 1697م وكتاب **"الديانة المحمدية" لهادريان ريلاند** سنة 1705م لكن الكنيسة الكاثوليكية أدرجت هذا الكتاب في قائمة الكتب المحرم تداولها وذلك بسبب معالجته للإسلام معالجة موضوعية ، فقد قال [**إن المرء يصح له أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت**] ويقول [**ينبغي على المرء بدلا من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع محمدا نفسه وهو يتحدث في لغته كما ينبغي على المرء أن يقتني الكتب العربية وأن يري بعينيه هو وليس بعيون الآخرين وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن فقد أعطى الله العقل لكل الناس** .

---

1 – انظر الاستشراق والخلفية الفكرية محمود زقزوق 30 .

2 – Johann Paeck p 53-54 .

وقد كان رأيي دائما أن ذلك الدين الذي انتشر انتشارا بعيدا في آسيا وأفريقيا وفي أوروبا أيضا ليس دينا ماجنا أو دينا سخيفا كما يتخيل كثير من المسيحين][1]

وقد شهد القرن الثامن عشر أيضا نموذجا آخر في الدراسة الموضوعية للإسلام وهو المستشرق الألماني **يوهان** وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية في ألمانيا ، لكن هذه الكتابات لم تستطع أن تقضي تماما على الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأوروبيين فقد بقيت تلك الصورة في إطارها العام على مر العصور كما هي ، ومما زاد قتامة تلك الصورة التخلف العربي والإسلامي الواضح والانحطاط الفكري خلال القرن التاسع عشر ما دفع **برودنسون** إلى القول [**وفي القرن التاسع عشر كان الشرق الإسلامي لا يزال عدوا ولكنه عدو محكوم عليه بالهزيمة وكانت البلاد الشرقية أشبه بالشهود المنهارين لماض عريق ، فقد كان المرء يستطيع أن يستمتع بترف امتداحهم في الوقت الذي كان فيه السياسيون ورجال الأعمال يفعلون كل ما في وسعهم للإسراع في انهيارهم ولم يكن إمكان صحوهم ولحاقهم بالعصر الحديث يثير أية حماسة بل أنهم يفقدون في خلال عملية تحديثهم نكهة الغرابة التي كانت مبعث سحرهم]**[2] وقد أدى ذلك إلى تغير كبير في نظرة الغربي إلى الشرقي إذ أصبح الشرقي في نظر الغربي في القرن التاسع عشر كما يقول رودنسون [**مخلوقا مختلفا بعد أن كان في ظل أيديولوجيـــة الثورة الفرنسية إنسانا قبل كل شـــيء أصبح الآن سجين**

---

1 – Gustav Pfannmuetter : hanbduch der islamliteratue berlin 1923 p . 63-64

2 – انظر تراث الإسلام 68/1 .

خصوصيته وموضوعا للثناء الذي يمن به عليه بعضهم][1] ولقد كان للمد الاستعماري في العالم الإسلامي دور كبير في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق خصوصا بعد منتصف القرن التاسع عشر ففي سنة 1857 ثم استيلاء الإنجليز على الهند وفي نفس السنة استيلاء فرنسا على الجزائر وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح العالم الإسلامي كله تقريبا خاضع لنفوذ الاستعمار الغربي[2] وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين وإضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسهم وتشكيكهم في معتقداتهم وتراثهم حتى يتم للاستعمار في النهاية إخضاع المسلمين إخضاعا تاما للحضارة والثقافة الغربية .

كل هذا ساهم في نشوب الخلاف بين المثقفين والباحثين عندنا مما جعلهم ينظرون إلى الحضارة الغربية على أنها الخلاص الوحيد من رق التخلف والجهل المحيط بالحضارة العربية ، يقول الشيخ أبو الحسن الندوي [**المستشرقون وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الإسلامية ويملكون إعجاب الأوساط العلمية في الشرق والغرب وإجلالها وتقديرها ويقام لأرائهم ونظرياتهم في البحوث الإسلامية في الشرق وزن كبير أثاروا في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه – ممن تثقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى أو درسوا الإسلام بلغات الغرب – شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية .**

---

1 – انظر تراث الإسلام 80/1 .

2 – محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي 29-30 .

وأحدثوا في نفوسهم يأسا من مستقبل الإسلام ومقتا على حاضره وسوء الظن بماضيه ، كما أن لهم إسهاما كبيرا في الحث على نصرة "إصلاح الديانة" و "إصلاح القانون الإسلامي" والمستشرقون يركزون كل جهدهم ومساعيهم على تعرف مواضع الضعف وتمثيلها في صورة مهولة مروعة وإنهم ينظرون إليها عن طريق الآلة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلا والنقطة بحرا والفسيلة نخلة وقد ظهرت حذاقتهم وبان ذكاؤهم في تشويه صورة الإسلام][1] .

لم يكن في يوم من الأيام فهم الدين أمرا معزولا عن الواقع ومتعاليا عليه ، ولا يمكن أن نفهم أسباب نشأت الفرق الدينية ومقولاتها وتحولاتها من دون القراءة الواعية للواقع الذي نشأت فيه لأنها في حصيلتها النهائية من إفراز ذلك الواقع ، وبناءا على ذلك فإن المشروعات الفكرية الحديثة في قراءة النص هي استجابة للتحدي الحضاري الذي فرضه الصدام مع الحضارة الغربية بمقولاتها ومنتجاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية التي تحولت إلى مكون رئيس من مكونات فكرنا العربي الحديث ، وإذا أردنا البحث عن بداية لتلك المشاريع فيتحتم علينا العودة إلى لحظة الاحتكاك بالحضارة الغربية ، ويظهر ذلك من خلال ثلاث مراحل :

- **المرحلة الأولى** : في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ومع احتدام التنافس بين الحضارة العربية والغربية وسقوط الحضارة العربية وتخلفها بدأت محاولات العلماء والمفكرين لإعادة قراءة التراث العربي والإسلامي ومحاولة معرفـــة سبب الانحطاط والتخلف وطرح

---

1 – انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية 176-179 .

مشروعات فكرية للنهوض بالأمة والانفكاك من قيد الحضارة الغربية فكانت أطروحات محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي ومحاولاتهم التوفيق بين النص الشرعي وبعض المنتجات الفكرية الغربية ، وظلت أطروحاتهم في قراءة النص الشرعي داخل محيط التداول الإسلامي للنهوض محتفظة بطريقة الاجتهاد المتعارف عليه في السياق المعرفي الإسلامي وغير خارجة عنه .

- **المرحلة الثانية** : في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين بدأت موجة أخرى من المشروعات الموجهة للتعامل مع النص الشرعي ، ومع هذه الموجة ظهرت منهجية قراءة النص الشرعي بواسطة المناهج الحديثة وخاصة قراءة القصص في القرآن الكريم كما في أطروحات طه حسين وأمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله ، مستخدمين في قراءتهم لذلك القصص آليات العقل الإنساني التاريخي.
- **المرحلة الثالثة** : في أواخر الستينيات وبعد النكسة العربية بدأت الموجة الثالثة والتي اتجهت معها الجمهرة الكثيرة من المثقفين العرب إلى إعادة قراءة التراث مما شكل ما يشبه الظاهرة ، وهو ما دفع جورج طرابيشي إلى تسمية تلك الظاهرة ب"**العصاب الجماعي**" هذه الظاهرة تتكون من عدة تيارات منها ما كانت قراءته على ضفاف النص الديني ولم تتعامل مع النص الديني مباشرة كالجابري والعروي وحسين مروة وجورج طرابيشي ، ومنها تيارات أخرى كان مجال قراءتها النصوص الدينية نفسها وهي على قسمين :

- – ما كانت قراءته ضمن منهج التداول الإسلامي المعروف اعتمادا على التأويل كجمال البنا[1] . ومحمد العشماوي[2].
- – ما كانت قراءتهم تستمد آلياتها من خارج نطاق التداول الإسلامي للاجتهاد وذلك في الاعتماد على مناهج حديثة في قراءتها للنص ومنهم محمد أركون وهو صاحب القراءة التفكيكية للنص الديني والكشف عن اللامفكر في ذلك النص مستعينا بمنهج الحفر الاركيولوجي[3] والقراءة السيميائية [4] والتاريخية للنص الديني[5] ومنهم أيضا عبد المجيد الشرقي التونسي الذي يعتمد في قراءته للنص على نتائج منهج دراسة الأديان والأنسنة واللسانية والتاريخية الجديدة ، ومنهم حسن حنفي صاحب مشروع (من العقيدة إلى الثورة) وهو محاولة لإعادة تفسير المقولات الكلامية عن الله والغيب والدين تفسيرا جديدا[6] ومنهم نصر حامد أبو زيد صاحب المشروع الفكري في إعادة قراءة النص الديني قراءة تاريخية مستعينا بمنهج الهرمنيوطيقا (التأويلية)[7] .

---

1 – انظر كتبه : تنوير القرآن ، الإسلام والعقلانية ، الإسلام وحرية الفكر .

2 – انظر كتابه أصول الشريعة .

3 – انظر علي حرب : الممنوع والممتنع 117 ، نقد النص لحامد 69 .

4 – انظر الفكر الإسلامي قراءة علمية 32 .

5 – انظر كتابه تاريخية الفكر العربي الإسلامي .

6 – انظر كتابه من العقيدة إلى الثورة .

7 –انظر كتبه : مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، النص والسلطة والحقيقة ، نقد الخطاب الديني .

ومنهم الطيب التيزيني صاحب مشروع إعادة قراءة النص الديني من خلال الوضعية الاجتماعية المشخصة المرافقة لتزول تفسير المفردات دون النظر إلى سياق الكلام وذلك بإعادة تفسير الكليات الدينية (الدين ، الإسلام ، الرسول ، النبي) بتفسير لغوي جديد يحيل إلى معان جديدة ثم توليد معاني جديدة من هذه الكليات لتفسير فرعيات الدين ، واعتمد على المنهج التاريخي في قراءته للسنة[1] .

هذه هي تقريبا مجمل المحاولات الحديثة لقراءة النص الديني في أطروحات المثقفين العرب .

---

1 – انظر كتابه : الكتاب والقرءان قراءة معاصرة .

قراءة نصر حامد أبو زيد

وهي من أهم القراءات الحديثة التي طُرحت لقراءة النص الديني في المحيط الثقافي العربي ، وهي قراءة تتسم بالخطورة والتدليس في المصطلحات والإيهام في بعض الأمور التاريخية ، وقد استطاع أبو زيد تسويق مشروعه الإيديولوجي (العلمانية) من خلال تلك القراءة ، ورأى بأن مصلحي النهضة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أخفقوا في إحداث نقلة نوعية في تجديد فهم الإسلام ، ويرد سبب ذلك لعدم قدرتهم على تجاوز الرؤى السائدة وسط أغلب المسلمين بأن القرآن يجب أن يطبق في كل الأماكن والأزمنة وأن الإسلاميين آثروا التعامل مع القرآن الكريم بطريقة بركماتية في سبيل التوفيق بين نصوص القرآن والمعضلات الفكرية التي طرحتها الحضارة الغربية ، فاستخدموا فقط الآيات التي تلائم مقاصدهم وتخدم مصالحهم متجاهلين تلك التي لا تتلاءم مع هذه المقاصد وتلك المصالح فالقرآن في نظره يحتوي على العديد من الآيات التي يصعب أن تتفق مع المعايير الدولية للديمقراطية الحديثة وحقوق الإنسان فالقرآن يجيز الرق ويجيز عقوبات قروسطية مثل قطع يد السارق وفرض الجزية على غير المسلمين كما يمارس التفرقة ضد المرأة في عدة مواضع مثل منحها نصف ما يحصل عليه الرجل في الميراث ، وبتجاهل هذه الآيات غير الديمقراطية –كما يقول- في القرآن فإن الإصلاحيين حرموا أنفسهم من فرصة الرد على الأصوليين السلفيين الذين يصرون على تطبيقها وهذا وفقا لأبي زيد هو مكمن فشل الإصلاح الإسلامي حاليا .

ورأى بأن هذا المنهج قد هيمن على أغلب التيار الإصلاحي الإسلامي إلى الآن ، ومن هنا فهو ينادي بمشروع ينقل الإصلاح الديني إلى داخل النص

القرآني نفسه وذلك بإعادة قراءة النص قراءة تاريخية ، فالإمكانية الوحيدة لإصلاح حقيقي في الإسلام – في زعمه – تكمن في فهم تاريخي للقرآن فهو يشير إلى أن القرآن ليس بنص جامد يحتوي على تشريعات قانونية جاهزة وصالحة لكل الأمكنة والأزمنة ، بل يجب النظر إليه كخطاب ديناميكي متعلق بالحاجات الإنسانية في مكان وزمان محددين ، فهو يحتوي على كل من قيم كونية وتطبيقات تاريخية لهذه القيم وإذا ما أردنا معرفة الحكمة وراء هذه التطبيقات يجب علينا أن ندرس السياق التاريخي ، وكمثال على هذا الطرح يذكر أبو زيد الآية التي تمنح المرأة نصف الميراث الذي يحصل عليه الرجل ويحاج أبو زيد بالقول إنه بالنظر لهذه الآية في سياقها التاريخي فإنها تعد في الواقع خطوة كبرى إلى الأمام لأنه قبل ذلك الوقت لم يكن للمرأة الحق في أي شيء على الإطلاق لذا فإذا ما طبقنا المقصد الكامن لهذه الآية في وقتنا الحاضر فسنجد أنها تشير إلى أننا يجب أن نعتبر الرجل والمرأة متساويين كليا أمام القانون .

ومصطلح التاريخية كما يعرفه آلان نوربن هي **المقدرة التي يتمتع بها كل مجتمع في إنتاج حقله الاجتماعي والثقافي الخاص به ووسطه التاريخي الخاص به أيضا ..وما سوف أدعوه بالتاريخية هو إذن الطبيعة الخاصة التي تتميز بها الأنظمة الاجتماعية التي تمتلك إمكانية الحركة والفعل على أنفسها بالذات بواسطة مجموعة من التوجيهات الثقافية والاجتماعية**[1].

---

1 – انظر محمد أركون الفكر الإسلامي قراءة علمية 116 .

وبحسب هذا المذهب فإننا لا نستطيع الحكم على الأفكار أو الحوادث أو المفاهيم والمعتقدات والأديان ونظم الجماعات إلا بنسبتها للوسط التاريخي الذي ظهرت فيه ، إذ النظر إليها من ناحيتها الذاتية يوقعنا في التباسات اختزالية مقيتة بينما نسبتها للوسط التاريخي ستضعها في إطار المعالجة والرؤية الموضوعية لخصائصها وتركيبها ومظاهرها – حسب رأي أبو زيد – لذا فحسب هذا المذهب لا مناص من ضرورة النسبة الحتمية للتاريخ ، فالمنهج التاريخي عند أبو زيد لا يعترف بصعيد خاص للظاهرة الدينية ولا يقر بها بل يتعامل معها كأية ظاهرة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية عادية .

فالتاريخية بهذا المعنى هي النظر إلى النصوص الثقافية باعتبارها إنتاجا ثقافيا محكوما بالحقل الاجتماعي والثقافي والسياسي للمجتمع وفق ظروفه التاريخية والجغرافية .

هذه الرؤية الثقافية للنص هي نفسها التي دعا إلى إعمالها أبو زيد في التعامل مع النصوص الثقافية عامة **فكل النصوص تستمد مرجعيتها من الثقافة التي تنتمي إليها**[1] فهو لا يفرق بين النص البشري والنص القرآني إذ هما متساويان عنده من حيث قوانين التكون والبناء وإنتاج الدلالة ، فهو كما يقول **النص القرآني يستمد مرجعيته من اللغة .. وإذا انتقلنا إلى الثقافة قلنا إن هذا النص منتج ثقافي**[2] منتج ثقافي باعتباره محكوما بالقوانين الداخلية البنيوية الدلالية للثقافة التي ينتمي إليها فـــ**ليست النصوص الدينية نصوصا**

---

1 – انظر الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة ص: 08 .

2 – انظر الفكر الديني ص: 87 .

مفارقة لبنية الثقافة التي تشكلت في إطارها بأي حال من الأحوال والمصدر الإلهي لتلك النصوص لا يلغي إطلاقا حقيقة كونها نصوصا لغوية بكل ما تعنيه اللغة من ارتباط بالزمان والمكان التاريخي والاجتماعي[1] .

وكون النص خطابا إلهيا من حيث المصدر لا يعني عدم قابليته للتحليل لأنه خطاب لغوي تجسدي في لغة إنسانية وهي اللغة العربية بكل إشكاليات سياقها الاجتماعي والثقافي والتاريخي ، ومن ثم فإن العديد من أحكام القرآن أحكام تاريخية مرتبطة بزمانها المحدد كأحوال المرأة في الميراث ، ولهذا يمكن الاجتهاد بشأنها وشأن ما يماثلها بتغير الأوضاع والأحوال .

وهو في الوقت الذي يرى أن النصوص الدينية مصدرها إلهي إلا أنه يرى أنها بخضوعها لقوانين الثقافة الإنسانية فهي قد تأنسنت من هذه الحيثية **فـــالنصوص دينيةً كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة والمصدر الإلهي لا يخرجها عن هذه القوانين لأنها تأنسنت منذ تجسدت في التاريخ واللغة وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدد ، إنها محكومة بجدلية الثبات والتغير فالنصوص ثابتة في المنطوق متحركة متغيرة في المفهوم وفي مقابل النصوص تقف القراءة محكومة أيضا بجدلية الإخفاء والكشف**[2]

وإذا تقرر أن القرآن في محصلته النهائية منتج ثقافي مفارق لمصدره الإلهي فهو يخضع شأنه شأن أي نص ثقافي للمناهج الحديثة في قراءة النصوص كالهرمنيوطيقا والسيموطيقا وغيرها من المناهج ، وذلك لأن النصوص القرآنية **دلالتها لا تنفك عن النظام اللغوي الثقافي الذي يعد جزءا منه يجعل من اللغة ومحيطها الثقافي مرجع التفسير والتأويل**[3] .

---

1 – انظر الفكر الديني ص: 92 .

2 – نقد الخطاب الديني 118-119 .

3 – انظر الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية 198 .

وقد حاول أبو زيد تسويق نظريته التاريخية للنص القرآني من داخل التراث وذلك بالاتكاء على القول بخلق القرآن عند المعتزلة والدعوة إلى بعث هذه الفكرة والإيمان بها ، فهو يرى أن القول بتاريخية النص القرآني فرع للنظر إلى الأفعال الإلهية وفعلها بالعالم المخلوق المحدث ولهذا فالقرآن **ظاهرة تاريخية من حيث إنه واحد من تجليات الكلام الإلهي**[1] وهذا الصنيع من أبي زيد مغالطة معرفية خطيرة فالمعتزلة قالوا بخلق القرآن مبالغة منهم في تتريه الله لأنهم يرون أن القول بأن القرآن ليس مخلوقا هو الحكم له بالقدم وهذا يؤدي إلى تعدد القدماء ، فلجؤوا إلى القول بخلق القرآن لتتريه الله وتقديسه ، وفي الوقت نفسه ينسبون القرآن إلى الله على جهة الخلق ونصوصه عندهم لها قدسيتها ، فقولهم بأن القرآن مخلوق ليس مساواة للقرآن بغيره من النصوص كما زعم أبو زيد .

والناتج عن منهج أبو زيد هذا أمران خطيران :

- أولهما : نزع القداسة عن القرآن الكريم وتحويله من نص ديني مقدس له خصوصيته إلى نص قابل للنقد .
- ثانيهما : نزع ثبوت الدلالة عن النص نهائيا وتحويله إلى نص متغير الدلالة حسب الظروف التاريخية للقارئ .

لقد نادى أبو زيد بإخضاع القرآن الكريم لنظرية تنكر الخالق وتؤول الوحي الإلهي على أنه إفراز بيئوي أسطوري ناتج عن المعرفة التاريخية الغارقة في الأسطورة ، واسم هذه النظرية كما سبق الهرمنيوطيقا .

---

1 – انظر الفكر الديني 75 .

ومصطلح الهرمنيوطيقا مصطلح قديم بدأ استعماله في دوائر الدارسات اللاهوتية ليشير إلى مجموعة من القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني (الكتاب المقدس) ويعود قدم هذا المصطلح للدلالة على هذا المعنى إلى عام 1654 وما زال مستمرا حتى اليوم خاصة في الأوساط البروتستانتية. وقد اتسع مفهوم المصطلح في تطبيقاته الحديثة وانتقل من مجال علم اللاهوت إلى دوائر أكثر اتساعا تشمل كافة العلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع الانثروبولوجي وفلسفة الجمال والنقد الأدبي والفلوكلور .

والقضية الأساسية التي تتناولها الهومنيوطيقا بالدرس هي معضلة تفسير النص بشكل عام سواء كان هذا النص نصا تاريخيا أم نصا دينيا ، ومن أكابر أصحاب هذه النظرية المفكر الألماني شلير ماخر وويلهلم ديلش ومارتن هيدجر وجادامر الذي يقول عنه أبو زيد [**وتعد الهرمنيوطيقا الجدلية عند جادامر بعد تعديلها من خلال منظور جدلي مادي نقطة بدء أصيلة للنظر في علاقة المفسر بالنص لا في النصوص الأدبية ونظرية الأدب فحسب ، بل في إعادة النظر في تراثنا الديني حول تفسير القرآن منذ أقدم عصوره وحتى الآن**][1] .

لقد طالب أبو زيد بالتحرر من سلطة النصوص الدينية وأولها القرآن وقال [**قد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص وحدها بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا ، علينا أن نقوم بهذا الآن وفورا قبل أن يجرفنا الطوفان**][2] .

---

1 – انظر إشكاليات القراءة وآليات التأويل ص 49 .

2 – انظر الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية 146 .

فمشروع أبو زيد هو وضع التصورات الماركسية والمضامين المادية الجدلية وتفسيرها لجوانب الحياة في المعنى القرآني فيصير القرآن ماركسيا فيغير بذلك المفاهيم الرئيسية للقرآن الكريم ويلغي المعاني الحقيقة للسور والآيات ويطمس الحقائق الدينية التي رسخها القرآن وبينتها السنة ، فيصير القرآن يقول ما يقولونه ويتكلم بما يتكلمون به وينطق بكل المذاهب والفلسفات ، أي أنه ليس له معنى ثابت فمن شاء أن يجعله وجوديا فلا حرج أو ماركسيا فلا مانع أو صهيونيا فلا مشكلة أو علمانيا فلا ضير أو عبثيا فلا بأس ، هذا هو إعجاز القرآن الكريم عند نصر حامد أبو زيد وأمثاله ، فإعجاز القرآن عندهم أن تقرأ فيه مختلف العقائد والشرائع[1] .

ولقد ظن أبو زيد أنه بهذا المنهج قادر على أن يترع صفة الوحي الإلهي عن القرآن وبأن الله قد مات كما قال نيتشه وبأنْ لا إله والحياة مادة كما قال ماركس وغير هذا من الترهات ، وبذلك حاول أبو زيد أن يتعامل مع القرآن كتعامله مع النصوص الأدبية الأخرى باعتبار مضمون القرآن مضمونا أسطوريا غيبيا ، من ثم تأتي تطبيقات الهرمنيوطيقا على القرآن الكريم معطية مضامينها المجازية التي تنكر وجود الله وتنفي ما أثبته القرآن من حقائق فيكون الهدف إعادة فهم النصوص وتأويلها بنفي المفاهيم التاريخية الأصلية وإحلال المفاهيم المعاصرة الأكثر إنسانية وتقدما .

وبالتالي نخلص إلى ما يلي من وراء منهج قراءة أبو زيد للنص القرآني :

أولاً : طعونه في القرآن المجيد ، والسنة المطهرة ، ومن ذلك :

- ادعاؤه أن القرآن المجيد ليس وحيًا من عند الله وإنكاره سابقة وجوده

1- انظر نقد النص ص: 87 .

في اللوح المحفوظ ، وزعمه أنه « منتج » ثقافي بيئي ، أي إنه من إفرازات الثقافة العربية لبيئة الرسول ﷺ ، ومن إنتاج المجتمع الذي نشأ فيه الرسول ﷺ فهو من آثار البيئة والمجتمع ، ومن ثم يؤكد في أكثر من موضع أن القرآن صورة صادقة للمجتمع في عهد النبي ﷺ وإنما كان ذلك لأنه مستمد من البيئة ، وصادر عنها ، فلا وحي ولا قداسة. يقول أبو زيد [**إن القول بأن النص منتج ثقافي يكون في هذه الحالة قضية بديهية لا تحتاج إلى إثبات ، لكن القـــول بأن النص « منتج » ثقافي يمثل بالنسبة إلى القرآن مرحلة التكوين والاكتمال ، وهى مرحلة صار النص بعدها ، « منتجًا » للثقافة .. إن الفارق بين المرحلتين في تاريخ النص هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها ، وبين إمداده للثقافة وتغييره لها**][1] ويقول [**إن النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي ، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على عشرين عامًا ، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقًا عليها ، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي للنص**][2] .

وهذا من المؤلف يبين بشكل قاطع أنه يرى أن القرآن ليس وحيًا من عند الله ﷻ وإنما هو منتج ثقافي ، ومأخوذ عن ثقافة البيئة العربية التي كان فيها محمد ﷺ وقد قطع بذلك بوضوح شديد في قوله [إن الفارق بين المرحلتين هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها.. فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ، ويعكر من ثم إمكانية

---

1 – انظر مفهوم النص : دراسة في علوم القرآن 23 -24 .

2 – انظر مفهوم النص : دراسة في علوم القرآن 27 .

الفهم العلمي للنص]فهو إذن ليس مستمدًا من عند الله تعالى ، ولا وحيًا نزل به جبريل عليه السلام !! وإنما وبوضوح شديد : **مستمد من الثقافة ومعبر عنها.**

ولأن القرآن مستمد من الثقافة البيئية للنبي ﷺ ، فكذلك السنة من باب أولى ، وهو يحدد لنا المدة الزمنية التي استغرقها النص القرآني ، وكذلك نصوص السنة بأنها المدة التي عاشها رسول الله ﷺ نبيًا ، وإذا كان قد استعمل في النص السابق لفظتي : **منتج** ، و**مستمد** ، فإنه أضاف إليهما لفظة أكثر وضوحًا هي : **التشكل** ، إذ يقرر أن النص الديني – يقصد القرآن والسنة – قد تشكل خلال فترة تزيد على العشرين عامًا ، ثم يزيد الأمر وضوحًا حين يصف القرآن والسنة بأنهما **نصوص لغوية** وهكذا .. لا وحى ، ولا تقديس ، ولا إعجاز ، ولا تشريع ، مجرد نصوص لغوية كما نصف قطعة شعرية أو نثرية.

– يقول عن القرآن والسنة : [**هي نصوص لغوية تشكلت خلال فترة زادت على العشرين عامًا ، وحين نقول : تشكلت ، فإننا نقصد وجودها المتعين في الواقع والثقافة بقطع النظر عن أي وجود سابق لها في العلم الإلهي أو اللوح المحفوظ**][1]

– ينفى عن القرآن أي وجود سابق له في علم الله سبحانه ، وينفى عنه أي وجود له في اللوح المحفوظ ، وهذا مردود بقوله تعالى :﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾[2].

---

1 – انظر الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية .

2 – سورة البروج الآيات 21 – 22 .

- دعوته إلى الخروج على نصوص القرآن والتحرر منها ، ورفض الخضوع لها ، فالهدف الذي يسعى إليه المؤلف إنما هو التحرر من النصوص ومن مُنَزِّل النصوص و التخلص من سلطان الله ﷻ والدعوة إلى التمرد على هذه السلطة ، لذا فإن كل من يعظم سلطان الله ﷻ على الإنسان والوجود هو عدو لأبي زيد، ومن هنا فقد وقف المؤلف موقف العداء من الإمام الشافعي ﷺ لأن الإمام الشافعي في اجتهاداته حول القياس والاستحسان إنما يرد كل قضية لم يرد فيها نص إلى ما يماثلها مما ورد فيه نص ، ويرجع بالأحكام إلى النص من كتاب أو سنة ، وهذا – في رأى أبي زيد – يُمَكِّنُ من سلطان الله على الإنسان ، وهو ما يبغضه ، ويصور خضوع العبد لله بأنه خضوع العبد للسيد ، وهذا ما لا يرضاه ،يقول أبو زيد [**إن هذا الموقف – يقصد موقف الشافعي من القياس والاستحسان – يعكس رؤيته للعالم والإنسان ، وهى رؤية تجعل الإنسان مغلولاً دائمًا بمجموعة من الثوابت التي إذا فارقها حكم على نفسه بالخروج من الإنسانية ، وليست هذه الرؤية للإنسان والعالم معزولة تمامًا عن مفهوم الحاكمية في الخطاب الديني السلفي المعاصر حيث ينظر لعلاقة الله بالإنسان والعالم من منظور علاقة السيد بالعبد الذي لا يتوقع منه سوى الإذعان**][1] فأبو زيد يرفض مرجعية الوحي الأعلى ، ويرفض الإذعان لحكم الله ، ويرفض أن يُنظر إليه على أنه **عبد لله** ، وأن الله تعالى **سيد له** كما يرفض بإصرار شديد أن يعيش **مغلولاً بمجموعة من الثوابت** أو بمعنى آخر ، يرفض أن يعيش خاضعًا لأوامر الله ونواهيه ، وما استقر في دين الله ﷻ من فرائض وواجبات

---

1 – انظر الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ص : 103 .

وحلال وحرام ، مما يسميه أبو زيد **مجموعة من الثوابت** ثم يدعو إلى التحرر منها وعدم الخضوع لها .

ثانيًا : ادعاؤه عدم صلاحية الشرع الشريف – كتابًا وسنة – لوضع الحلول لكل القضايا والمشكلات التي تعرض للمسلمين حالاً ومستقبلاً ، ودعوته إلى طرح الكتاب والسنة وتجاهلهما حين البحث عن حلول لمشاكلنا:

يقول [**ويبدأ الشافعي بتقرير مبدأ على درجة عالية من الخطورة فحواه : أن الكتاب – القرآن الكريم – يدل بطرق مختلفة على حلول لكل المشكلات والنوازل التي وقعت أو يمكن أن تقع في الحاضر أو في المستقبل على السواء .. وتكمن خطورة هذا المبدأ في أنه المبدأ الذي ساد تاريخنا العقلي والفكري ، وما زال يتردد حتى الآن في الخطاب الديني لكل اتجاهاته وتياراته وفصائله ، وهو المبدأ الذي حول العقل إلى عقل تابع يقتصر دوره على تأويل النص واشتقاق الدلالة منه**][1]

فأبو زيد هنا يخالف قول الله ﷻ: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ** ﴾[2] وقوله ﷻ: ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾[3]

ثالثًا : إنكاره عالمية الإسلام، وعموميته ، وشموله لكل الخلق من إنس وجن ، وادعاؤه الباطل بأن الإسلام دين للعرب وحدهم يقول أبو زيد [**فالإسلام دين عربي ، بل هو أهم مكونات العروبة وأساسها الثقافي والحضاري**][4]

وهذا إنكار كامل واضح لعمومية الإسلام وعالميته.

---

1 – انظر الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ص : 21 .

2 – سورة النحل الآية : 89 .

3 – سورة الأنعام الآية : 38 .

4 – انظر مفهوم النص .

وأبو زيد ، بعد أن يقطع بأن الإسلام دين عربي ، يزيد الأمر وضوحًا فيبين أن الزعم بأن الإسلام دين عالمي إنما هو خيالات وأوهام ذهنية بعيدة عن الواقع تمامًا يقول في نفس الكتاب السابق : [**إن الفصل بين العروبة والإسلام ينطلق من مجموعة من الافتراضات الذهنية : أولها : عالمية الإسلام وشموليته ودعوى أنه دين للناس وليس للعرب وحدهم ، ورغم أن هذه الدعوى مفهوم مستقر في الثقافة ، فإن إنكار الأصل العربي للإسلام وتجاوزه «للوثب» إلى العالمية والشمولية مفهوم حديث نسبيًا**][1]

والمؤلف هنا يبين عددًا من الأمور التي يعتنقها ويدعو إليها:

- إن الإسلام دين عربي ، وليس عالميًا ولا شاملا.
- إن الادعاء أنه عالمي شامل مجرد افتراض ذهني لا صلة له بالواقع.
- إن دعوى عالمية الإسلام وشموله مفهوم مستقر في « الثقافة » وليس في القرآن والسنة والدين كله .
- إن الادعاء بعالمية الإسلام « وثب » إلى العالمية ، كأنه انتهازية وسرقة وغصب.
- إن دعوى العالميـــة الإســـلام وشموله مفهـــوم حديث نسبيًا .. أي إنه لا صلة له بالقرآن أو بالسنة .

---

1 – انظر كتاب مفهوم النص .

قراءة محمد أركون

وتشمل منهجيته في قراءة النص القرآني على القراءة النقدية التاريخية من خلال منظور نيتشه وفرويد وكارل ماركس ، يقول أركون [**إن إعادة قراءة القرآن من جديد قراءة نقدية متخصصة لا قراءة إيديولوجية تقليدية هي الخطوة الأولى التي لا بد منها من أجل فهم المناخ الفكري والنفسي للشخصية العربية الإسلامية ، إن هذه القراءة مضطرة لأن نأخذ في الاعتبار كل المسار الفلسفي والنقدي الذي قطعه الفكر الغربي ابتداءا من نيتشه وانتهاءا بفرويد ومرورا بطبيعة الحال بكارل ماركس**][1]

ويفضل محمد أركون دراسة النصوص القرآنية من خلال ارتباطها بالظروف التاريخية باعتبار أن مضامينها موافقة لظروف معيشة وأفق محمد ﷺ ومستمعيه الأوائل لكنها لم تعد تتوافق مع ظروف معيشة وأفق قارئ اليوم الحضاري .

إن تبني أركون للتاريخية النقدية بما هي ميزة تتكفل جانب إقصاء الاستخدام اللاهوتي والأيديولوجي للتاريخ يكشف عن الوجه الأيديولوجي الحقيقي الذي يغلف الترعة التاريخية في ادعائها العلمية والمنهجية .

لقد اشتغل الجزائري محمد أركون منذ ثمانينيات القرن الماضي على وضع آليات قراءة النص الديني وفق منظور المنهج التاريخي موضع التنفيذ وانخرط في فضاء فكري مختلف عن البيئة الثقافية الأصلية التي ينتمي إليها ويشتغل عليها مما أتاح له وضعا أكثر موائمة وتحررا وانفلاتا من القيود والشروط التي تقتضيها طبيعة التعامل مع المحيط الأصلي الذي يضبط التعامل مع النصوص

---

1 – انظر اليسار الإسلامي 41-42 .

الدينية . وقد دعا محمد أركون إلى ممارسة النقد التاريخي على النص القرآني بقوله [**عملي يقوم على إخضاع القرآن لمحك النقد التاريخي المقارن**] واتسم طرحه بالإخلاص التام والعميق للتروع العلماني الليبرالي من خلال انخراطه الكلي بالأسس المنهجية الغربية التاريخية والتفكيكية دونما مراعاة للخصوصيات المحيطة ، ويعتبر منهج أركون هو الأكثر أداءا والأوفى تمثيلا للخطاب العلماني على مستوى الدراسات القرآنية ويتعامل مع النص بوصفه **"نصا تاريخيا"** مما يفضي إلى إخضاع النص القرآني للقراءة النقدية عن طريق النقد التاريخي المقارن وتحليل الألسني التفكيكي مما يفترض وجود مشكلة تعترض سبيل فهمنا للنص القرآني وتتضح هذه المشكلة في وجود فرق بين النص المقروء في زمن نزوله على النبي ﷺ وبين النص المكتوب بين دفتي المصحف ، ويصرح أركون بأن المقدس الذي نعيش عليه أو معه اليوم لا علاقة له بالمقدس الذي كان للعرب في الكعبة قبل الإسلام ولا حتى بالمقدس الذي كان سائدا أيام النبي ﷺ وكما يقول أركون [**أما التمييز بين القرآن الكريم والظاهرة القرآنية فأقصد به الفرق بين تغذية الروح الإسلامية بكلام الله تعالى ودراسة النصوص القرآنية كما ندرس الظاهرة الفيزيائية أو البيولوجية أو الاجتماعية أو الأدبية ، وبهذا يمكن لنا تجاوز العراقيل التي تحول دون فهمنا لآيات القرآن في الوقت المعاصر**] وتتمثل العرقلة – حسب زعمه – في أن القرآن الكريم يقوم عن طريق العمليات الأسلوبية والبلاغية بخلع التعالي على أحداث تاريخية واقعية حصلت في زمن النبي ﷺ ولكنها حورت من قبل الخطاب القرآني لكي تتخذ دلالة كونية تتجاوز خصوصيتها المحلية وتصبح لا علاقة لها بحدث محدد وقع في التاريخ المحسوس ،

فيصبح القرآن يمحو المعالم المحسوسة والإشارات التاريخية الدقيقة عن طريق أسلوب التسامي والتصعيد ، أي تصعيد هذه الأحداث بالذات وإسباغ الروحانية الدينية والكونية على مفردات ذات مضمون اجتماعي وسياسي وقانوني في الأصل ، وهكذا ينجح القرآن – حسب زعمه – في محو كل التفاصيل والدقائق التاريخية للحدث ويصبح خطابا كونيا موجها للبشر في كل زمان ومكان ، وهكذا يفقد صفته التاريخية ويبدوا وكأنه خارج التاريخ أو يعلو عليه .

انطلاقا من ذلك يصل أركون إلى أن هذه المحاولات من القرآن هي محاولات أيديولوجية أي أن القرآن يفعل ذلك ويتعالى بالتاريخ لمقاصد وأغراض دنيوية فقداسة القرآن هنا ليست أصلية إنما دخيلة وليست جوهرية وإنما سطحية وليست حقيقية وإنما مصطنعة حصلت لأسباب سياسية وثقافية وتلاعبات فكرية وأن هذه التلاعبات قد كشفها النقد وتبين زيفها فيما يخص التوراة والإنجيل أما بالنسبة للقرآن فإن هذا لم يحصل بعد ، فلا يزال كتابا مقدسا يحتوي على مساحة كبيرة من اللامفكر فيه .

من هنا يطمح أركون إلى نزع هالة القداسة عن الوحي بتعرية آليات الأسطرة والتعالي والتقديس التي يمارسها الخطاب القرآني فينظر إلى القرآن ليس على أنه كلام آت من فوق وإنما على أنه حدث واقعي تماما كوقائع الفيزياء والبيولوجيا ، ومن ثم تجب دراسته بوصفه نصا لغويا دون اعتبار لبعده الإلهي لأن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق على النص يعكر على كون النص منتجا ثقافيا ويعكر الفهم العلمي له ، وعليه فالفهم الصحيح للنصوص الدينية يتوقف على إزاحة هذا الغطاء الإيديولوجي المصطنع عن وجه النص القرآني وقراءته على أنه نص تاريخي أدبي تطبق عليه المناهج الحديثة المختلفة في دراسة

النصوص الأدبية والتاريخية كمناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية ومنهج التاريخ المقارن للأديان ذلك أن النظر إلى النص القرآني نظرة نقدية تاريخية انتروبولوجية من شأنها أن تزعزع جميع الأبنية التقديسية والتنزيهية التي بناها العقل اللاهوتي التقليدي وبالتالي تعمل على إفراغ الدين من محتواه الأيديولوجي وتحديد مساحته في إطار علماني ممنهج ، وفي سبيل تحقيق ذلك كله يدعو أركون إلى استخدام الدراسة التفكيكية للنصوص المقدسة وإلى قراءتها على أنها نصوص تاريخية منفصلة عن مصدرها أو ما يسمى في البنيوية بموت المؤلف فيتم إخضاع النص القرآني للقراءة كنص بشري أو كنص إلهي محكوم بسقف التاريخ والثقافة .

قراءة محمد أحمد خلف الله

وتعد قراءته غير كاملة الجوانب ، وذلك راجع إلى عدم تمكنه من العلوم التي حشر نفسه فيها كغيره من أصحاب المناهج الحديثة ، وجل أفكاره ونزعاته شبيهة بما دعا إليه أبو زيد وغيره ، وتتخلص قراءته في إعادة قراءة النص الديني باعتباره فكرا بشريا لا نصا إليها تحكمه ضوابط وشروط في التعامل معه ، يقول [**ما عدا القرآن فكر بشري نتعامل معه بعقولنا وتفسير رسول الله للقرآن قول بشر**][1] .

ويقول مجاهرا برفضه للنص القرآني جملة : [**إن النص القرآني إن لم يكن قادرا على تحقيق المصالح تركناه ولجأنا إلى الفكر البشري فإن مدار النصوص على المصالح فهي أصل والنصوص فرع**][2]

واشتهرت قراءته بوصف القصص القرآني بالخرافة والخيال والأسطورة ومجانبة الواقع ، وزعم أن القرآن نفسه لا ينفي أنه يحوي الأساطير وأنه يتقول على اليهود وينطقهم بما لم ينطقوا به ويتقول أمورا لن تحدث ويقرر أمرا خرافيا أو أسطوريا وأن مصادر القصص القرآني هي التوراة والإنجيل والأقاصيص الشعبية والأدب اليوناني والفارسي ، وأن محمدا ﷺ هو مؤلف القرآن وأن القرآن في قصصه لم يتحر الصدق وأنه كان يغير ويبدل في القصص نزولا على ظروفه الخاصة التي كانت تحيط بالدعوة الإسلامية وأن محمدا ﷺ كان يخلق من الحوادث في القصص القرآني ما لم يقع ويصوره على أنه الواقع التاريخي .

---

1 – انظر اليسار الإسلامي 40 .

2 – المصدر نفسه ص: 34 .

وتتلخص قراءته في الأمور التالية :

- أن القرآن من تأليف محمد ﷺ .
- رفض النص القرآني والعمل بالنص البشري .
- أن القصص القرآني أصله الأدب اليوناني والفارسي ويمتاز بالأسطورة والخيال .
- أن القرآن افترى على اليهود وتقول عليهم .
- أن القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار .

يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي [**صاحب هذه الرسالة – محمد أحمد خلف الله – لم يكن له أن يظفر إلى الكتابة عن موضوع القرآن وهو يجهل تعريف التناقض في المنطق ويبني على جهله به حكما خطيرا في قصة إبراهيم وهو يدل على مستوى صاحب الرسالة في العلم وعلى أنه جرى في رسالته على هذا المنوال فقذف نفسه في بحر لا يحسن السباحة فيه ولم يخض فيه فحول العلماء وأكابر الحكماء من الطبري إلى الزمخشري إلى الرازي وإلى أمثالهم في علمهم وحكمتهم**][1] .

وقد جمع المدعو خلف الله منهجه في كتاب سماه "**الفن القصصي في القرآن الكريم**" وتقدم به في كلية الآداب عام1947 تحت إشراف أمين الخولي وقد رد عليه الأستاذ أحمد أمين فقال[**إن صاحب الرسالة يرى أن القصة في التاريخ لا تلتزم الصدق التاريخي وإنما تتجه كما يتجه الأدب إلى تصوير الحادثة تصويرا فنيا بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد مثل أن البشرى كانت لإبراهيم أو لامرأته فدعوى هذا التناقض تدل على أن صاحب**

---

1 – انظر أعلام وأقزام .

صاحب هذه الرسالة لا يعرف تعريف التناقض وعلى أنه سار في رسالته بهذا العلم الذي لا يزال في طور الطفولة ، فضل الصواب وخبط خبط عشواء والقرآن أجل من أن يتناول بمثل هذا العلم العاجز وأخطر من أن يحكم في مسائله من لا يزال يجهل تعريف التناقض][1] .

---

1 – انظر أعلام وأقزام 422 – 424 .

قراءة أدونيس
علي أحمد سعيد

ويشمل منهجه إعادة قراءة النص القرآني باعتباره نصا فينيقيا قديما ، وهي قراءة تحمل الشيء الكثير من الكره للقرآن والإسلام والرسول ﷺ وللعرب كراهية عميقة ، لذلك فهو يتبنى كل ما يوحى بابتعاده عن العروبة وتسخطه عليها ، بالإضافة إلى غنائه النائح حول فينيقيا وإلى تسمية نفسه باسم أدونيس كرمز من الرموز التي يدعو القوميون إلى إحيائها ، ويشبه نفسه بمهيار على اعتبار أن مهيار لا ينتمي إلى العرب لأنه من أصل فارسي وبذلك يتبرأ أدونيس من عروبته ، ولا يعترف بالإسلام كشريعة وديانة سماوية .

وسارت له شهرة داوية في المحافل الأدبية والفكرية على صعيد العالم العربي ودوائر الاستشراق الأوروبي وبخاصة الفرنسي ، وقد تصدى له في الستينيات عبر مجلة الرسالة عدد من الأدباء والشعراء منهم الدكتور عبده بدوي والدكتور أحمد كمال زكي والأستاذ عباس خضر والدكتور عبد الكريم الخطيب ، وممن تصدى له كذلك وفضح زوره ودجله الدكتور حلمي القاعود في كتابه **"الحداثة العربية المصطلح والمفهوم"** .

وتتلخص قراءته للنص القرآني أو منهجه في الآتي :

- رفض الانتماء الإسلامي والعربي جملة واحدة .
- اعتبار النص القرآني نصا فينيقيا وبذلك لا يؤدي النص القرآني دوره إلا إذا قرئ كما تقرأ النصوص الفينيقية .
- نفي الدين من واقع الأمة وتصورها ، واعتباره نقطة عار في وجه الحضارة العربية أمام الحضارة الغربية التي لا تعرف دينا ومع ذلك

بلغت درجات عالية في التطور والازدهار ، واعتبار الدين هو المعوق الوحيد لتطور الأمة وازدهار المجتمع وتحقيق الرفاهية .

- الانفصال عن الماضي ، والدعوة إلى التمسك بالمستقبل الكائن في الحضارة الغربية المتطورة ، ودفع المثقفين والأدباء والشعراء إلى الأخذ بالنموذج الغربي في جميع المجالات بدون نقد أو إقصاء .

والواضح من قراءة أدونيس هو هدم العقيدة والإيمان ويؤكد على ذلك بقوله [**الله في التصور الإسلامي التقليدي نقطة ثابتة متعالية منفصلة عن الإنسان التصوف ذوب ثبات الألوهية ، جعل حركة النفس في أغوارها ، أزال الحاجز بينه وبين الإنسان ، وبهذا المعنى قتله (أي الله) وأعطى الإنسان طاقاته ، المتصوف يحيى في سكر يسكر بدوره العالم وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحد ، صارت المعجزة تتحرك بين يديه**][1] .

---

1 – انظر مقدمة الشعر العربي ص : 131 .

ويشمل منهجه إعادة قراءة النصوص الدينية من منطلق كونها نصوص تراثية لا غير ، واعتبار العقيدة والوحي والنبوة والرسالة والإيمان والغيب وغيرها من مفاهيم ثوابت الدين ومصطلحاته مجرد أمور تافهة لا تعدو أن تكون اصطلاحات أدبية وتعابير إنشائية لا تعبر عن الواقع ، يقول [**إنه – الله – هو الأرض والخبز والحرية والعدل والعتاد والعدة وصرخات الألم وصيحات الفرح ، فهو تعبير أدبي أكثر منه وصفا لواقع وتعبير إنشائي أكثر منه وصفا خبريا ولذلك وجب التخلي عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة في علم أصول الدين من مثل : الله والرسول والدين والجنة والنار والثواب والعقاب ، لأن هذه الألفاظ والمصطلحات قطعية ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة ولأنها تشير إلى مقومات غير إنسانية فما الله إلا وعي الإنسان بذاته وما صفاته وأسماؤه إلا آمال الإنسان وغاياته التي يصبو إليها وكل صفات الله – العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة – كلها صفات الإنسان الكامل وكل أسماء الله الحسنى تعني آمال الإنسان وغاياته التي يصبو إليها ، فالحقيقة هي الإنسان والواقع الذي يعيش فيه ولذلك فتعبير الإنسان الكامل أكثر من تعبيرا من لفظ الله ، والتوحيد ليس توحيدا لذات الإلهية كما هو الحال في علم الكلام الموروث وإنما هو وحدة البشرية ووحدة التاريخ ووحدة الحقيقة ووحدة الإنسان ووحدة الجماعة ووحدة الأسرة ، فالمهم هو إيجاد الدلالة المعاصرة للموضوع القديم وتخليصه من شوائبه اللاهوتية ، فليس للعقائد صدق داخلي ولا يوجد دين في ذاته والوحي هو البناء المثالي للعالم ، والمطلوب هو تحويل الوحي إلى إيديولوجية وإلى علم إنساني ، والعلمانية هي أساس الوحي ،**

فالوحي علماني في جوهره والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ ، تظهر في لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور والتراث قضية وطنية لا دينية ومادة التراث نسقطها كلها من الحساب ونستبدل بها مادة أخرى جديدة من واقعنا المعاصر ، والإلحاد هو التجديد والتحول من القول إلى العمل ومن النظر إلى السلوك ومن الفكر إلى الواقع ، إنه وعي بالحاضر ودرء للأخطار بل هو المعنى الأصلي للإيمان والمطلوب هو الانتقال من العقل إلى الطبيعة ومن الروح إلى المادة ومن الله إلى العالم ومن النفس إلى البدن ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك ومن العقيدة إلى الثورة][1].

وهكذا فقراءة حسن حنفي تجرد جميع ثوابت الإسلام وعقائده ومصطلحاته من محتواها الديني وتعتبره "**عبث حداثي لامعقول**"[2] وأن "**النقل وحده لا يثبت شيئا ، وقال الله وقال الرسول لا يعتبر حجة**"[3] وأن "**الجن والملائكة والشياطين بل الخلق والبعث والقيامة ألفاظ تجاوز الحس والمشاهدة ولا يمكن استعمالها لأنها لا تشير إلى واقع ولا يقبلها الناس ولا تؤدي دور الإيصال**"[4] ، وأن "**العقل هو أساس النقل وأن كل ما عارض العقل فإنه يعارض النقل وكل ما وافق العقل فإنه يوافق النقل..لقد احتمينا بالنصوص فجاء اللصوص**"[5] .

---

1 – انظر مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية للدكتور محمد عمارة 28 – 29 .

2 – انظر التراث والتجديد لحسن حنفي ص : 128-130-139 .

3 – انظر اليسار الإسلامي ص:33 .

4 – انظر اليسار الإسلامي ص: 51 .

5 – انظر التراث والتجديد 119-120 .

وهكذا فحنفي يجعل المؤمن بالنص والداعي إليه "**لص**" وهذه العبارة "**احتمينا بالنصوص فجاء اللصوص**" استعارها حنفي من الشاعر الفلسطيني محمود درويش[1] .

من ثم فقراءة حسن حنفي تساوت لديها النصوص الدينية مع الأمثال العامية والأغاني الشعبية وتعتبر قصص آدم وحواء والملائكة والشياطين كلها رموز أو جزء من الأدب الشعبي وأن الإنسان لا يحتاج إلى الوحي أو إلى الإيمان بالجن والملائكة ليكون مسلما[2] فهو يقول [**يمكن للمسلم المعاصر أن ينكر كل الجانب الغيبي في الدين ويكون مسلما حقا في سلوكه**][3] ويقول [**لا يوجد دين في ذاته بل يوجد تراث لجماعة معينة ظهر في لحظة تاريخية محددة ويمكن تطويرها للحظة تاريخية قادمة**][4] .

وموقف حسن حنفي من التراث موقف نقدي تاريخي فهو يعني إبراز مواطن التقدم في التراث من عقلانية وطبيعية وديمقراطية ولابد من التحرر من كل سلطة إلا من سلطة العقل والواقع حتى تعود للإنسان قيمته التي فقدها عندما اعترف بالله[5] ويرى أن السبب في فقد الإنسان لقيمته في تراثنا الإسلامي يرجع إلى سيادة الاختيار الأشعري وأن هذه السيادة هي إحدى معوقات العصر لأنها تعطي الأولوية لله في الفعل وفي العلم والحكم وفي التقويم[6] .

---

1 – انظر ظاهرة اليسار الإسلامي لمحسن الحيلي 53-55 .

2 – انظر قلاع المسلمين مهددة من داخلها للدكتور محمد عبد القادر هنادي 42 .

3 – انظر قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر لحسن حنفي 91-93 .

4 – انظر التراث والتجديد 22 .

5 – انظر مقال : ماذا يعني اليسار الإسلامي لحسن حنفي مجلة اليسار الإسلامي العدد الأول .

6 – انظر التراث والتجديد 21 .

ويرى أن اللغة العربية تقليدية قاصرة وتتضمن عيوبا كثيرة منها أنها لغة إلهية تدور الألفاظ فيها حول الله بل إن لفظ الله لا يعبر عن معنى معين فهو صرخة وجودية ، إذ أن الله عند الجائع هو الرغيف وعند المستعبد هو الحرية وعند المظلوم هو العدل ، أي أنه في معظم الحالات "**صرخة المضطهدين**" ثم ينتهي حنفي إلى أنه لا يمكن إيصال أي معنى بلفظ "الله" لأن الله حوى معاني كثيرة لدرجة أنه يدل على معان متعارضة[1] .

---

1 - انظر التراث والتجديد 129 .

يظهر لنا من خلال جميع المشاريع السابقة التي تبغي إعادة قراءة النصوص الدينة قراءة حديثة ، تدعو إلى تفريغ جعبة النص الديني من مفاهيم العالمية والإطلاقية ونزع صفة الخلود والصلاحية لكل زمان ومكان عنه ، وذلك بغية الالتفاف على حقيقة كونية القرآن الكريم من خلال إحالته إلى التاريخ والنظر إليه باعتباره نصا تاريخيا محكوما بشروط تاريخية وظرفية يزول بزوالها وتعمل على ربط القرآن بسياقات تنزيله وتفسير معانيه تفسيرا تداوليا قاصرا من خلال الخوض في مسألة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني وغيرها من القضايا ، فالغاية من أرخنة الخطاب القرآني هي العودة بالقرآن الكريم بشكل علمي إلى قاعدته البيئوية والعرقية اللغوية والاجتماعية والسياسية الخاصة بحياة القبائل في مكة والمدينة في بداية القرن السابع الميلادي وهذا الجهد يجد مشروعيته في القول بأن القرآن الكريم خطاب تاريخي يتغير فهمه ومعناه مع تغير الزمان والمكان وبناءا على ذلك فما جاء فيه من عقائد وتشريعات وأحكام تتغير وتتبدل مع تبدل الزمان والمكان وهذا التبدل لا يقصد منه هنا المرونة في الاجتهاد الفقهي المواكب لمتغيرات الواقع عبر الزمان والمكان بمقدار ما يُعنى به عدم صلاحية الحكم الشرعي لكل زمان ومكان فهو وقتي بمعنى أنه جاء لوقت قد مضى و لم يعد يتلاءم مع الوضع الحال وبالتالي يجب أن تتغير تفسيراته بما يناسب الوضع المستجد ، وثمرة هذا الجهد تظهر فقط في كشف اللحظة التاريخية الأولى التي تتكشف عن المعنى المدفون تحت أنقاض المؤامرة الإيديولوجية القابعة في مناهج الدراسات الحديثة ، وذلك أن قراءة النص القرآني كنص محكوم بسقف التاريخ والثقافة من شأنها أن تكشف لنا عن الخلفية السياسية والثقافية للتلاعبات الفكرية ، وهذا النقد

سوف يساهم في تعرية النص القرآني من هالة القداسة كما حصل للتوراة والإنجيل لعلمهم أن المسلمين لا يسمح لهم أن يلمسوا القرآن بغير طهارة فما بالك بالقراءة ، واعتبروا هذا من قمة التقديس الذي أفردوا له جهودهم وسعيهم الحثيث من أجل القضاء عليه .

إلا أن الذي حصل بالفعل عند تصفح بنيات التطبيق المنهجي التاريخاني التي ساهمت في انجازها القراءة الحديثة السابقة، هي وقوع أصحابها في فخ التقليد والمحاكاة التطبيقية الهزيلة لما أحدثته الدراسات الاستشراقية التاريخانية على مستوى التوراة والإنجيل، وسوف نحاول الوقوف فيما يلي على عملية الإسقاط الحرفي والتي تنم عن تجاهل مطبق للخصوصية القرآنية والتراثية حتى ليخال القارئ لهذا الحقل أنه بإزاء انبعاث استشراقي مندثر بامتياز.

وسوف نسوق هنا لبعض الدلالات المباشرة التي أفضت إليها الممارسة المنهجية التاريخانية والتي تفصح عن مستوى الخطاب العلماني في سلوكه البحثي للنص القرآني:

- الأسطرة ومشابهة التوراة والإنجيل: تربط القراءات الحديثة بين القرآن والتوراة بوصفه الخطاب الأسطوري فتقول بأن الحكايات التوراتية والخطاب القرآني هما نموذجان رائعان من نماذج التعبير الأسطوري. وأن القرآن كالأناجيل ليس إلا مجازات تتكلم عن الوضع البشري، و هذه المجازات لا يمكن أن تكوِّن قانونا واضحا. فالقرآن الكريم لا يعدو أن يكون نصا أسطوريا.

- تشريعية القرآن الكريم: فالقرآن – كما الأناجيل – ليس إلا مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري لا يمكن أن تكون قانونا واضحا. وإن المعطيات الخارقة للطبيعة والحكايات الأسطورية القرآنية سوف تُتلقى بصفتها تعابير

أدبية، أي تعابير مُحوَّرة عن مطامح ورؤى، وعواطف حقيقية، يمكن فقط للتحليل التاريخي السيسيولوجي (الاجتماعي) والبسيكولوجي (النفسي) اللغوي – أن يعيها ويكشفها. وفي هذا تشير جميع مشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني بإشارة واضحة إلى نفي كون القرآن الكريم مصدرا للتشريع، فالقرآن في نظرها مجرد مجازات أدبية وحكايات أسطورية ليس لها صلة بالواقع .

– القصص القرآني: وللقراءات الحديثة نفس الموقف الاستشراقي من القصص القرآني في زعمهم نقلها عن التوراة والإنجيل، وتردد مزاعم المستشرقين في وضوح التداخلية النصية بين القرآن والنصوص الأخرى التي سبقته، وأن سورة الكهف تشكل مثلا ساطعا على ظاهرة التداخلية النصية الواسعة الموجودة في الخطاب القرآني، فهناك ثلاث قصص هي: أهل الكهف، وأسطورة غلغاميش (يقصد به: الخضر) ورواية الإسكندر الأكبر (ويقصد: به ذي القرنين) وجميعها تحيلنا إلى المخيال الثقافي المشترك والأقدم لمنطقة الشرق الأوسط القديم. وفي سبيل قيام دراسة نقدية تمحص تلك الأخبار، ينبغي القيام بنقد تاريخي لتحديد أنواع الخلط والحذف والإضافة والمغالطات التاريخية التي أحدثتها الروايات القرآنية بالقياس إلى معطيات التاريخ الواقعي المحسوس.

– الرمزية: تبنى أصحاب القراءة الحديثة منطق التفسيرات الرمزية الباطنية التي هي امتداد لمذهب الرمزية لدى فرويد، وماركس، ونيتشه، والتي ترى أن الرمز حقيقة زائفة لا يجب الوثوق به بل يجب إزالتها وصولا إلى المعنى المختبئ وراءها. وهم كثيرا ما يرددون مصطلح الرمزية في فهم النص، أو ما يسمى بالرمزية السيميائية (الدلالية) في فهم وتفسير النص. ويمجدون

التفسيرات الباطنية أو الرمزية للصوفيين، والقراءات المجازية للغنوصيين الباطنيين ويعتبرونها أكثر خصوبة بالمعلومات والدروس المحتمل وجودها في القرآن.

- جمع القرآن الكريم: لجميع أصحاب القراءة الحديثة الموقف ذاته من جمع القرآن الكريم والتشكيك في الروايات الإسلامية حول كتابة القرآن الكريم في العهد النبوي وجمعه في عهد أبي بكر وعثمان، وبعدم تسليم لها ويثنون على الكتابات الاستشراقية الناقدة لصحة جمع القرآن أمثال كتابات المستشرق الألماني نولدكه، في كتابه تاريخ القرآن، وشوالي، وبيرغستراسير في كتابيهما جمع القرآن، وتاريخ النص القرآني، والمستشرق الألماني ربيجيس بلاشير.

- الغيب في القرآن الكريم: ويعتبرونه الأسلوب الممنهج في القرآن لخداع الناس والتمويه عليهم وذلك بالنعيم في الجنة للمجاهدين في سبيل الله وبالنار في الجحيم للمخالفين لتعاليم الله . وأن الخطاب القرآني قد استطاع بهذه الطريقة (ولا يزال) خلع القدسية والتعالي على التاريخ البشري الأكثر مادية ودنيوية والأكثر عادية وشيوعا والاعتباطية الجذرية للأحداث ، وأن الغيب عبارة عن تصورات تشكل مخيالا كونيا تستحيل في الزمان التجريـــبي المحسوس الذي نعيشه.

المحور الثالث

اقتراح ضوابط القراءة العلمية للنص القرآني

اقتراح ضوابط القراءة العلمية للنص القرآني

مما سبق يظهر أن مجموع مشاريع الدراسات الحديثة للنصوص الدينية بصفة عامة وللنص القرآني بصفة خاصة تنطلق من منطلق الإساءة لهذه النصوص واعتبارها المعوق الوحيد في نهضة الأمة وتطورها ، ولذلك تركزت جلها على اعتبار النص القرآني نص بشري أو نص تاريخي أو فينيقي أو حتى تراثي وفي بعض المرات إنكار كونه وحيا إلهيا ، وما ذلك إلا للوصول إلى نتيجة يسيل لها لعاب أصحاب القراءة الحديثة وهي قابلية النص القرآني للنقد والتشريح والتعليق ، ومن تم تحقيق الهدف الذي من أجله ظهرت هذه المشاريع وعليه تتقاضى أجورها وهو إبعاد القرآن الكريم من حياة الناس وانشغالاتهم وحصره في القرون الأولى واعتبار كل من فسره من منطلق كونه نصا إلهيا لم يفقه الغاية منه بدءا من ابن عباس وانتهاءا بالطاهر بن عاشور .

وعلى اعتبار ما سبق فنحن لسنا ضد الدراسات الجديدة للنص القرآني ، فعلى العكس من ذلك نحن بحاجة إليها فتطور المجتمع والأمة وظهور نوازل جديدة ، تتطلب قراءة جديدة للنصوص الدينية من علمائنا لا من سفهائنا ، من منطلق المسؤولية وهَمَّ الأمة لا من منطلق العبثية واللهو ، ولذلك يتطلب في المتقدم لقراءة النص القرآني قراءة جديدة أن يكون مستوفيا لجميع الشروط العلمية الحاكمة لقواعد النظر في النص القرآني ، لأن دراسة النص القرآني وقراءته تعتبر علما كاملا له أسسه وقواعده ومتطلباته ولا يقتصر فقط على التفسير وإبداء الرأي وإنما يتطلب توفر علوم عديدة بالإضافة إلى أخلاق رصينة فلا يتصور أن يتقدم لقراءة النص القرآني رجل لا يعرف أين القبلة وصاحب خمر وحشيش ويطالب بقراءة النص القرآني قراءة جديدة فهذا لم

يتوفر فيه شرط الأخلاق والانضباط الإسلامي على أن يتوفر فيه غيره من التقوى والإيمان .

لذلك فهناك ضوابط وشروط وقواعد يجب مراعاتها أثناء قراءة النص القرآني وقد قسمتها إلى قسمين :

القسم الأول : فيما يتعلق بالقارئ .

القسم الثاني : فيما يتعلق بالنص .

فأما القسم الأول :

1 – فيما يتعلق بالقارئ :

أ – العلم :

- **العلم باللغة العربية** : ولابد لقارئ النص القرآني أن يكون عالما باللغة العربية وعلومها معرفة تيسر له فهم خطاب العرب وعاداتهم في الاستعمال إلى حد يميز به بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقيته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه ولحنه ومفهومه ، قال الغزالي [**والتخفيف فيه أنه لا يشترط فيه أن يبلغ درجة الخليل والمبرد وأن يعرف جميع اللغة وأن يتعمق في النحو ، بل القدر الذي يتعلق بالكتاب والسنة ويستولي به على مواقع الخطاب ودرك حقائق المقاصد منه**][1]. ويقول الشوكاني [**ولا يشترط أن يكون حافظا لها عن ظهر قلب بل المعتبر أن يكون متمكنا من استخراجها من مؤلفات الأئمة المشتغلين في ذلك وقد قربوها أحسن تقريب وهذبوها أبلغ تهذيب ورتبوها على حروف المعجم ترتيبا لا يصعب الكشف عنه.**

---

1 – انظر المستصفى 1/351-352 .

ولا يبعد الإطلاع عليه وإنما يتمكن من معرفة معانيها وخواص تراكيبها وما اشتملت عليه من لطائف المزايا من كان عالما بعلم النحو والصرف والمعاني والبيان حتى يثبت له في كل فن من هذه ملكة يستحضر بها كل ما يحتاج إليه عند وروده عليه فإنه عند ذلك ينظر في الدليل نظرا صحيحا ويستخرج من الأحكام استخراجا قويا ومن جعل المقدار المحتاج إليه من هذه الفنون هو معرفة مختصراتها أو كتاب متوسط من المؤلفات الموضوعة فيها فقد أبعد ، بل الاستكثار من الممارسة لها والتوسع في الاطلاع على مطولاتها مما يزيد المجتهد قوة في البحث وبصرا في الاستخراج وبصيرة في حصول مطلوبه والحاصل أنه لابد أن تثبت له الملكة القوية في هذه العلوم وإنما تثبت هذه الملكة بطول الممارسة وكثرة الملازمة لشيوخ هذا الفن ، قال الإمام الشافعي "يجب على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يبلغه جهده في أداء فرضه" قال الماوردي "ومعرفة لسان العرب فرض على كل مسلم من مجتهد وغيره"][1]

- **العلم بالقرآن الكريم** : ومعرفة القرآن الكريم بل حفظه أمر ضروري لقارئ النص قصد الاستدلال والاستنباط وإدراك الفهم الصحيح السليم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2] فلابد من معرفته ، لأن من لا يعرف القرآن لا يعرف شريعة الإسلام ، قال الشاطبي [إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة وعمدة الملة وينبوع الحكمة وآية الرسالة ونور الأبصار والبصائر وأنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشيء يخالفه وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير

---

1 – انظر إرشاد الفحول 251-252 .

2 – سورة النحل الآية 89 .

واستدلال عليه لأنه معلوم من دين الأمة . وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها ، أن يتخذه سميره وأنيسه وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظرا وعملا لا اقتصارا على أحدهما فيوشك أن يفوز بالبغية وأن يظفر بالطلبة ويجد نفسه من السابقين وفي الرعيل الأول][1] وقد خفف العلماء في ذلك على المجتهد بقدر خمسمائة آية مما يتعلق بالأحكام ، وقد حكى الماوردي عن بعض أهل العلم أن اقتصار المفسرين على العدد المذكور إنما هو لأنهم رأوا مقاتل بن سليمان أفرد آيات الأحكام في تصنيف وجعلها خمسمائة آية[2] والذي أراه أن يكون المتقدم للنص القرآني عارفا معرفة تامة وكاملة بالقرآن الكريم وبكل موضع منه بل ويجب أن يكون حافظا له وإلا لما كان مرشحا لقراءة النص القرآني لأنه قل أن يوجد في القرآن آية لا يستنبط منها شيء من الأحكام وأن تمييز آيات الأحكام من غيرها متوقف على معرفة الجميع بالضرورة ، ثم إن الذي لا يستطيع حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب لا يستطيع أن يأتي بشيء في اجتهاده وقراءته .

– **العلم بالسنة النبوية** : ويشترط في ذلك معرفة كل ما صدر من رسول الله ﷺ سواء كان فعلا أو قولا أو تقريرا لكون السنة هي المصدر الثاني من المصادر التشريعية وهي الأصل الثاني من أصول الأحكام الشرعية ولن يتسنى للمفسر فهم النص القرآني إلا من خلالها.

---

1 – انظر الموافقات 346/3 .

2 – انظر إرشاد الفحول 250 .

لذلك كل من تقدم للقرآن من غير زاد من السنة كان مصير تفسيره مجانبة الصواب .

وقد بين القرآن الكريم في العديد من آياته الكريمة مكانة السنة ودعا إلى الأخذ بها ، وقارن بين طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وطالب المسلمين بالاحتكام إلى رسول الله فيما شجر بينهم من خلاف ، قال تعالى مؤكدا هذه المعاني ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾[4] .

فالسنة هي المصدر التفسيري والتوضيحي المكمل للمصدر الأول وهو القرآن الكريم ، فلا يتصور دارس للقرآن من غير سنة .

---

1 – سورة الحشر الآية 07 .

2 – سورة النساء الآية 65 .

3 – سورة النساء الآية 59 .

4 – سورة الأحزاب الآية 36 .

- **العلم بأحوال الصحابة وأقوالهم** : ومعرفة أحوال صحابة رسول الله ﷺ وأقوالهم شرط أساس في قراءة النص القرآني بعد معرفة السنة النبوية المطهرة إذ أن الصحابة رضوان الله عليهم بلغوا في الأمة الإسلامية درجة التفوق ، فهم :

-تميزوا بمشاهدة الوحي ومعاينة نزوله ومعرفة القرائن والأحوال .

-تميزوا بالربانية ، فقد كانوا موصلي العلاقة بالله ﷻ متعلقة قلوبهم به .

-تميزوا باختيار الله لهم ليكونوا أصحاب محمد ﷺ فهم خير القرون على الإطلاق .

-تميزوا بالتطبيق الحرفي للإسلام والفهم العميق لما يتضمنه من مبادئ وأسس وأحكام .

-تميزوا بالصدق والتقوى وتعديل الله لهم في محكم كتابه وجليل خطابه .

- **العلم بالسيرة النبوية** : ويشترط في ذلك معرفة السيرة النبوية المطهرة للنبي ﷺ والإطلاع على جميع ما كتب فيها بدءا من سيرة ابن هشام إلى كتاب المباركفوري[1] ، فسيرته ﷺ وأخلاقه وتاريخ جهاده وغزواته ومعالم نبوته ومعجزاته وفضائله لها دور مهم في فهم القرآن الكريم ومعرفة أحكامه وتشريعاته .

- **العلم بعلوم القرآن** : وتعتبر معرفة علوم القرآن أمرا لازما لمن يتقدم للنص القرآني قصد القراءة والتفسير والاجتهاد لصلة العلوم بالقرآن الكريم وارتباطها الوثيق به ، فما نشأت إلا بسببه ولخدمته والعون على فهمه .

---

1 – انظر الرحيق المختوم .

ومن يمعن النظر في علوم القرآن يقف على مقدار مدى تأثير القرآن فيها فلا يكاد يخلو علم منها من استهداء به واقتباس منه ، يقول الزركشي [**وكل علم من العلوم منتزع من القرآن وإلا فليس له برهان**][1] .

وهي علوم تتعلق بالقرآن وتتناول جوانب مختلفة منه بالشرح والتفصيل والتعريف من مبدأ نزوله وكيفية هذا النزول وأسبابه ومكانة ومدته وجمعه وكتابته ولغته وأسلوبه وإعجازه وقراءاته وترتيب سوره وآياته وطريقة ترتيله وأدائه وشروط تفسيره وبيان محكمه ومتشابهه ومكيه ومدنيه وناسخه ومنسوخه وأقسامه وأمثاله وترجمته وسنده وغريب ألفاظه ، فإذا تحقق كل هذا في المجتهد تحقق له بذلك :

- ثقافة عالية واسعة تتصل بالقرآن وعلوم معارفه .
- تعين على فهم القرآن وتفسيره وأخذ الآداب والأحكام منه ، وتجعله قوي الاستدلال حسن الاستنباط .

وعلى قدر معرفة هذه العلوم والتمرس بها والإخلاص لله فيها يسهل تحقيق الهدفين المذكورين .

– **العلم بعلوم السنة** : وعلى رأس ذلك التمييز بين الحديث الصحيح والحسن والضعيف والموضوع وإتقان علوم الحديث فإن جاهله لا يعذر ، فعليه بعلم طرق تحمل الحديث وأدائه وعلم غريبه ومختلفه ومشكله وناسخه ومنسوخه وعلم الجرح والتعديل وعلم مصطلح الحديث فالصحيح وأقسامه والحسن وأصنافه والضعيف وأنواعه والموضوع وعلاماته ، كل هذا واجب في حقه .

---

1 – انظر البرهان في علم القرآن 07/1 .

ثم بعد ذلك الحفظ فمن لا يحفظ الحديث ليس من أهله أو كما يقول ابن عدي عن هشيم من جهة النفيلي [**من لم يحفظ الحديث فليس هو من أصحاب الحديث**][1] ومن لم يكن من أصحاب الحديث فهو بطبيعة الحال ليس من أصحاب القرآن ، إذ الحديث والقرآن علمان لا ينفصلان ، ولا يفهم القرآن من لم يتقن الحديث ، ولا يفهم الحديث من لم يتقن القرآن .

وقد اختلف العلماء في القدر المطلوب حفظه من الحديث في المجتهد قال ابن العربي في المحصول ثلاث آلاف ، وقد سأل أبو علي الضرير أحمد بن حنبل : كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي ؟ يكفيه مائة حديث ؟ قال أحمد : لا ، قال : ثلاثمائة ألف ؟ قال : لا ، قلت : أربعمائة ألف ؟ قال : لا قلت خمسمائة ألف ؟ قال : ارجوا[2] .

- **العلم بالمعرفة العامة** : كالعلوم الاجتماعية والعقلية والكونية وما يتصل بالثقافة العامة فالتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والفلك والمنطق كل هذه العلوم وغيرها مما يساعد على تفسير القرآن تفسيرا يتصل بحياة الناس ، وتمكنه من كشف ما يمكن أن ينطلي على من لم يدرك تلك العلوم أثناء تفسيره للقرآن الكريم .

- **القدرة العقلية** : وهي أن يكون المفسر أو المجتهد موهوبا ذا قدرات عقلية ممتازة ، قوي الاستدلال حسن الاستنباط قادرا على الترجيح إن تعارض الأدلة عنده عارفا باختلاف الأقوال على حقيقته إذ كثيرا ما يكون الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

---

1 – انظر تدريب الراوي 24/1 .

2 – انظر إرشاد الفحول 251 .

- **تحقيق المناط** : وهو امتلاك القدرة على تجريد النص من قيد الزمان والمكان والاجتهاد في تنزيله على واقع الناس ومعالجته لمشاكلهم ، ولا يكون ذلك إلا بالفهم العميق لمقاصد الشرع والإلمام بالواقع حتى يمكنه الفصل في قضايا ومسائل أثارت جدلا فقهيا كبيرا وواسعا كقضية "**نقل الأعضاء**" و"**ختان الإناث**" و"**الاستنساخ**" و"**الرؤية الموحدة للهلال**" و"**التعامل مع البنوك وشركات التأمين**" من ثم فعليه أن لا يقف عند حدود التشريعات وإنما عليه بالفقه "**التربوي**" و"**الاجتماعي**" و"**السياسي**" و"**الاقتصادي**" و"**المعرفي**" بشكل عام ليغطي جميع شعب المعرفة وجوانب الحياة ، فإذا تكلم الفلاسفة كان منهم على وعي وإذا تكلم الاجتماعيون والاقتصاديون كان منهم على علم وإذا تكلم العلمانيون والليبراليون والماركسيون كان منهم على حذر وفطنة .

وقد يعبر عن هذا الشرط بـــ "**البصيرة**" أو"**الحكمة**" أو"**الاجتهاد**" أو"**الملكة**".

- **القدرة على الاستنباط** : لأن نصوص الشرع تنحصر والنوازل لا تنحصر وأحكام الدين وتشريعاته تؤخذ بالاستنباط لا بالالتقاط ، فليست القضية في حفظ النصوص وسرعة استحضارها فقط وإنما في تنزيل هذه الأحكام وقدرة الاستنباط في استخراج الحكم الذي يرضي الله ورسوله .

- **معرفة مقاصد الشريعة** : أي المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية ولا يكون له ذلك إلا بالإخلاص أولا ثم بالغوص في العلوم الشرعية ثانيا فهما وإدراكا حتى يتمكن من فهم السنن الكونية والدينية .

– **فهم الواقع المعاصر** : وهو الإلمام الواسع بالوقائع الحاصلة والإدراك التام للتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الواقعة ، ولا يجوز له بحال من الأحوال تجاهلها لأنه حينئذ لن يكون موفقا في قراءة النص لعدم إحاطته بالواقع الذي يعيش فيه .

ب – العقيدة :

– **صحة المقصد** : واضعا في نيته أن يتقدم إلى النصوص الدينية قصد طاعة الله وإرضائه أولا ثم إرشاد الأمة وهدايتها من مزالق الحياة ومشكلاتها حتى يعينه الله في أمره ذلك ويهديه لأقوم السبل وأحسنها قال تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[1] قال صاحب المورد [**وإنا يخلص له القصد إذا زهد في الدنيا لأنه إذا رغب فيها لم يؤمن أن يتوسل به إلى غرض يصده عن صواب ويفسد عليه صحة عمله**][2] .

وإنما الأعمال بالنيات والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام وإسداء المعروف لصالح الإسلام والتطهر من أغراض الدنيا ليسدد الله خطاه ، والانتفاع بالعم ثمرة الإخلاص فيه . ولين يفلح قوم أرادوا هدم الإسلام بقراءة القرآن .

– **صحة الاعتقاد** : فإن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها وكثيرا ما تحمل ذويها على تحريف النصوص والخيانة في نقل الأخبار كتأويل الآيات المخالفة لعقيدته وتحميلها باطل مذهبه لإلزام الناس بطريقته ومذهبه .

---

1 – سورة العنكبوت الآية 69 .

2 – انظر المورد الضمئان 190 .

وخير مثال في ذلك ما سقطت فيه الشيعة من سوء التفسير لآيات القرآن الكريم وتحريفها وتأويلها إرضاءا لعقيدتهم الزائفة المضلة فمثلا يفسرون النور بالأئمة في قوله تعالى ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1] وبعلي في قوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] وبولاية علي في قوله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾[3] ويفسرون الأنداد بأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾[4] وفي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾[5] ويفسرون البقرة بأمنا عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾[6] .

وكل هذا وغيره موجود في تفسير الكافي للكيلني وهو عندهم كصحيح البخاري عندنا.

فواجب على المفسر أو المجتهد أن يكون سليم العقيدة بيِّنها ، محبا لصحابة رسول الله ﷺ بدءا بأبي بكر وانتهاءا بأبي الطفيل شاهدا لهم بالصحبة والكرامة مقرا لهم بالتوقير والاحترام ، ومحبا كذلك للتابعين وتابعيهم وكل من له صلة بالعلم والقرآن والسنة سواء من قريب أو من بعيد .

---

1 – سورة التغابن الآية 08 .

2 – سورة الأعراف الآية 157 .

3 – سورة التوبة الآية 32 .

4 – سورة التوبة الآية 165 .

5 – سورة فصلت الآية 29 .

6 – سورة البقرة الآية 67 .

فلابد أن يكون المجتهد أو المفسر على عقيدة حسنة سليمة صحيحة موفقة ترضي الله ورسوله ﷺ ، تدرأ عن الله التشبيه والتعطيل ، وتكن لرسول الله ﷺ وصحابته المحبة والتوقير ، وتحارب ما يمكن أن يتسرب إليها من شبهات الطوائف الفاسدة والبدع الفكرية ، وتحارب كل الانحرافات العقدية والسلوكية والأخلاقية .

فالعقيدة الإسلامية الصحيحة التي توافق الفطرة وتحترم عقل الإنسان ومكانته في الكون تعد أمرا مهما في توحيد الله وإخلاص الدين له ، وتجعل الإنسان موثوق الصلة بالله سبحانه فلا يقوم بعمل لا يرضي الله ورسوله ﷺ ولا يقترب من شيء يمكن أن يصل به إلى ما يخل ذلك الشرط ، فالمؤمن في حذر ويقظة وفطنة طوال عمره ، تمكنه من أن يحافظ على دينه وعقيدته ومذهبه من كل ما يمكن أن يشكل خطرا عليهما.

ج – الأخلاق :

وهذا شرط أساسي كذلك إذ من كمال إسلام المرء حسن أخلاقه وتعلم الآداب وحسن السمت مطلب شرعي قلَّ في الناس في زماننا هذا من يلتفت إليه بل إن البلايا العظام لم تسقط على الأمة إلا من هذا الباب الخطير حتى أصبحنا نرى أصحاب الخمر والنساء والمخدرات والفاشلين يريدون إعادة قراءة النص القرآني و لم يستطيعوا أن يعيدوا أنفسهم إلى جادة الصواب ، وليس فيهم من يحسن الوضوء أصلا ، لذلك فالأدب والأخلاق والانضباط بالسلوك الإسلامي القويم شرط أساس لا رجعة فيه قال النووي [**قالوا : ولا يؤخذ العلم إلا ممن كملت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته**

واشتهرت صيانته وسيادته] وقال ابن المبارك [**طلبت العلم فأصبت منه شيئا وطلبت الأدب فإذا أهله قد بادوا**][1] .

فإذا قيل هذا في العلماء الجبال واشترط فيهم وفي الأخذ منهم وإلا كان الابتعاد عنهم واجب فما بالك بمن لا يفقهون من العلم شيئا يتقدمون إلى القرآن الكريم بحسة أبدانهم مخمورة عقولهم نتنة أفواههم فهؤلاء الأولى بكتاباتهم ومصنفاتهم سلل النفايات ، فإذا كان شرط الطهارة لازم لمن يريد مس المصحف فإنه واجب ومحتم على من يريد قراءته .

فالأدب شرط لحصول العلم يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم فلا علم لمن لا أدب له ولا أدب لمن لا دين له .

ويشترط في الأخلاق :

– **طهارة القلب** : لقوله ﷺ « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب »[2] قال ابن جماعة [**القلب المظلم المشحون بالذنوب لا يستطيع استقبال الملائكة ولا يبقى فيه مكان للعلم الذي هو نور يقذفه الله في قلوب من أراد**][3] فعليه أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وكره وسوء عقيدة وخلق .

– **التواضع للعلم والعلماء** : وينبغي أن ينظر لمن سبقه في ذلك بعين الاحترام وقد كان السلف إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال "اللهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني" وقال الشافعي "كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحا رقيقا هيبة له لئلا يسمع وقعها" .

---

1 – انظر منطلقات طالب العلم 265 .

2 – أخرجه البخاري : حديث 52 ومسلم في كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات .

3 – انظر تذكرة السامع والمتكلم 67 .

– **موالاة العلماء ومحبتهم** : وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله « ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه »[1] وقال ﷺ « إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط »[2] فإن الأولى بالموالاة والأحق بالمحبة في الله بعد الأنبياء هم العلماء ، قال ابن تيمية [**فيجب على المسلمين بعد موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ وموالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم**][3] وقال الطحاوي [**وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل**][4] .

2 – القسم الثاني : فيما يتعلق بالنص :

ويشترط في التعامل مع النص الديني في هذا القسم ما اشترطه علماء الأصول من قواعد ضابطة وشروط لازمة ، وما أكده الفقهاء من منهج في التعامل مع القرآن في التفسير كتفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال الصحابة وجعلها خطوات للتفسير الأمثل للنص القرآني .

وزيادة على ذلك يشترط فيه أيضا :

---

1 – رواه أحمد 323/5 .

2 – رواه أبو داود 4843 .

3 – انظر رفع الملام عن الأئمة الأعلام 11 .

4 – انظر شرح العقيدة الطحاوية 740/2 .

– **المخاطِب** (**الله**) : ويعني التعامل مع النص القرآني باعتباره نصا إلهيا من عند الله ﷺ فيكون بذلك الله ﷻ هو المخاطِب وكلامه يستقبل بالقبول والإذعان والطاعة .

– **الخطاب** (**النص**) : ويعني التعامل مع النص الإلهي على أنه وحي أراد الله من خلاله هداية البشرية وتوفيقها ، لا اعتباره نصا بشريا أو تاريخيا مات صاحبه ويحق لنا فيه ما نريد من التضعيف والتغيير .

– **المُخاطَب به** (**محمد**) : ويعني بذلك الإيمان برسالة محمد ﷺ وكمال تبليغها له ، وأنه نقل إلينا القرآن بغير تبديل ولا تحريف أو زيادة أو نقصان ، وعدم الإساءة لهذا الرسول العظيم واحترامه وتوقيره وطاعته ومعرفة فضله على هذه الأمة والبشرية سواء .

خاتمة

من خلال كل هذا وما يزيد ، يظهر الأمر وتنجلي السحابة وتُرفع الغمامة على قضية لا بد من التنبه إليها سواء من قِبل علمائنا أو مثقفينا أو حتى من قِبل نسائنا وأطفالنا ، أن القرآن الكريم هو كتاب هداية للبشرية جمعاء لا يختص بعرق ولا يحصر في محيط وإنما هو دستور يعمل به اليوم وغدا عندنا وعند غيرنا ، للعرب وغيرهم ، حتى تتحقق به السعادة المنشودة والاطمئنان المطلوب وتسعد به الأجيال وتنشأ على منهجه الأطفال ، فهو الرابطة بيننا وبين الله سبحانه ، ومتى تخلينا عنه تربص بنا أعداؤه وجاؤونا من كل حدب وصوب وشددوا علينا الخناق حتى يتكلموا معنا بألسنتنا ويجادلوننا بأبنائنا ويدمروننا بمن يحسبون علينا ، حسبهم في ذلك أن يتجهوا إلى القرآن الكريم فيسلوا عليه سيف الهجوم والانتقام والكراهية والبغض فينسبوه إلى البشر ويحصروه في مراحل من التاريخ ويجرون عليه ما يريدون من قواعد النقد والتضعيف والتوبيخ ، زاعمين في ذلك أنهم يريدون خير هذه الأمة وصلاحها ويرجون بذلك تطورها وازدهارها ، ويُذرُّون علينا غبار مشاريعهم الخيرة وقراءاتهم النيرة بأنهم يريدون فهما جديدا لنصوص القرآن حتى يحققوا بذلك غايتهم ويكملوا بما أنجزوه فرحتهم وفرحة أسيادهم ممن أَرْخَوْا لهم الأستار في بلادنا وأفرغوا لهم الكراسي في جامعاتنا و أفسحوا لهم المكاتب في مؤسساتنا وأعطوهم مفاتيح قيودنا وسلاسل تجرنا من نحورنا وأقدامنا ، فتنفتح لهم بذلك عقولنا وتنشأ على مناهجهم أجيالنا وفلذات أكبادنا فيقطعوا صلة الربط بيننا وبين خالقنا .

وإنهم إلى ذلك لواصلون وإليه لناجحون وله لمحققون إن لم يهب لنجدتنا علماؤنا وأصحاب الرأي فينا ، ويعود القرآن الكريم لمدارسنا ومنازلنا ، ويملأ حب محمد ﷺ قلوبنا ، عند ذلك لا لهم طريق يصلون به إلى بغيتهم وتكون الحسرة والغيظ من نصيبهم ، ولن يصلوا إلى ذلك ما دام القرآن موكولا حفظه لمن أنزله .

وإن لجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأعزه ذلك الحس المرهف والغيرة المطلوبة على كتاب الله ، وتلك وزارته الموقرة في الأوقاف بإقدامها على ترشيح هذا الموضوع وبثه إلى العلماء والمفكرين والباحثين والدارسين كي يحللوه ويناقشوه ويبدعوا فيه ليعد أمرا عظيما في حفظ بيضة الإسلام والمسلمين وحفظا لكتاب رب العالمين .

فاللهم اجعل هذا البحث وغيره من البحوث لخدمة القرآن في سجل الصفحات المشرقة والحسنات الخالدة والمكارم الحميدة والأيادي البيضاء لمولانا أمير المؤمنين وحامي حمى الوطن والدين جلالة الملك محمد السادس وأن يديم له النصر والفتح والتمكين ويحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم ويقر عينه بولي عهده المحبوب سمو الأمير الجليل مولاي الحسن وصنوه المجيد مولاي رشيد وأن يحفظه في كافة أسرته الملكية الشريفة إنه سميع قريب مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

وكتبه امحمد بن عبد الكريم رحماني

يوم الأربعاء 21 أكتوبر 2009

عين بني مطهر المحروسة

فهرس الموضوعات

تمهيد 02

كلمة واجبة موجزة : مفهوم النص القرآني 18

المحور الأول : بيان طرق تعامل علماء المسلمين مع النص القرآني :

- المنهج الأصولي في قراءة النص القرآني 21

عربية النص القرآني 25

وحدة القضية في الاستدلال 32

دلالة الخطاب 34

مراعاة سياق الخطاب 41

ترك الاستفصال 47

إدراك فقه النص 48

استحضار القرائن ومقتضيات الأحوال 50

- المنهج الفقهي في قراءة النص القرآني 52

التفسير بالمأثور 52

تفسير القرآن بالقرآن 52

تفسير القرآن بالسنة 56

تفسير القرآن بأقوال الصحابة 59

التفسير بالرأي 61

المحور الثاني : دراسة مشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني :

التسلسل التاريخي لمشاريع القراءة الحديثة للنص القرآني 67

قراءة نصر حامد أبو زيد 76

قراءة محمد أركون 88

قراءة محمد أحمد خلف الله 92
قراءة أدونيس 95
قراءة حسن حنفي 96
المحور الثالث : اقتراح ضوابط القراءة العلمية للنص القرآني :
القسم الأول : فيما يتعلق بالقارئ 107
أ – العلم :
العلم باللغة العربية 107
العلم بالقرآن الكريم 108
العلم بالسنة النبوية 109
العلم بأحوال الصحابة وأقوالهم 111
العلم بالسيرة النبوية 111
العلم بعلوم القرآن 111
العلم بعلوم السنة 112
العلم بالمعرفة العامة 113
القدرة العقلية 113
تحقيق المناط 114
القدرة على الاستنباط 114
معرفة مقاصد الشريعة 114
فهم الواقع المعاصر 115
ب – العقيدة :
صحة المقصد 115
صحة الاعتقاد 115

ج – الأخلاق :

طهارة القلب 118
التواضع للعلم والعلماء 118
موالاة العلماء ومحبتهم 119
القسم الثاني : فيما يتعلق بالنص 120
المخاطب 120
الخطاب 120
المخاطب به 120
خاتمة 121
فهرس الموضوعات 123
المصادر والمراجع 126

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- تفسير ابن كثير ، دار الفكر ، بيروت .
- الروض الأنف للسهيلي تعليق مجدي بن سيد الشورى ، دار الكتب العلمية بيروت .
- صحيح البخاري ، دار الفجر للتراث ط 1426 هـ 2005م القاهرة.
- صحيح مسلم ، دار صادر ، بيروت .
- جامع الترمذي ، مراجعة الشيخ صالح بن عبد العزيز ، دار السلام ، الرياض ، الطبعة الأولى 1420هـ1999م .
- سنن الدارمي ، تحقيق سيد إبراهيم وعلي محمد علي ، دار الحديث الطبعة الأولى 1420 هـ 2000م القاهرة .
-الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي تخريج أحمد السيد ، تعليق الشيخ عبد الله دراز ، المكتبة التوفيقية .
- ابن جزي ومنهجه في التفسير لعلي محمد الزبيدي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى 1407 هـ 1987م .
- المستصفى من علم الأصول للغزالي ، دراسة وتحقيق حمزة بن زهير حافظ.
- البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ، مراجعة عمر سليمان الأشقر الطبعة الثانية 1413 هـ 1992م دار الصفوة مصر .
- منهاج الوصول في علم الصول للبيضاوي بشرحيه منهاج العقول للبدخشي ونهاية السول للأسنوي ، مطبعة محمد علي صبيح ، مصر .
- المحصول في علم أصول الفقه للرازي ، دراسة وتحقيق طه جابر العلواني ، مؤسسة الرسالة .

- البرهان في أصول الفقه لأبي المعالي ، تحقيق عبد العظيم الديب ، الطبعة الأولى 1399 هـ .
- مفردات القرآن : نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية لعبد الحميد الفراهي ، تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي ، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2002 م .
- محاضرات في علوم القرآن للشيخ السيد أحمد ياسين أحمد الخياري الطبعة الأولى 1414 هـ 1993 م .
- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير لمحمد الصباغ ، المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة 1410هـ 1990م .
- أعلام وأقزام في ميزان الإسلام سيد بن حسين العفاني دار ماجد عسيري .
- أزمة الحوار الديني لجمال سلطان ، دار الصفا .
- الاستعمار أحقاد وأطماع للغزالي ، دار الكتب الإسلامية .
- الأسس القرآنية للتقدم لمحمد أحمد خلف الله .
- مقدمة في الشعر العربي لمحمد أحمد خلف الله .
- الإسلام : الأمس والغد لمحمد أركون .
- الإسلام السياسي لسعيد العشماوي .
- الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية لنصر حامد أبو زيد .
- تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون ، مركز الإنماء القومي 1986 .
-العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية 1421 هـ 2001 م.

- المدخل للتشريع الإسلامي لمحمد فاروق النبهان ، دار القلم ، الطبعة الثانية 1981 .
- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة ليوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى 1421 هـ 2000م .
- منطلقات طالب العلم لمحمد حسين يعقوب ، الطبعة الرابعة 2003م 1424 هـ .
- سيرة الصحابة لمصطفى مراد ، دار الفجر للتراث ، الطبعة الأولى 1423 هـ 2003 م .
- دليل الإمام والخطيب والواعظ ، منشورات وزارة الأوقاف المغربية 1427 هـ 2006 م .
- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها لعلال الفاسي ، الطبعة الرابعة 1411هـ 1991 م .
- النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون ، الطبعة الثالثة .